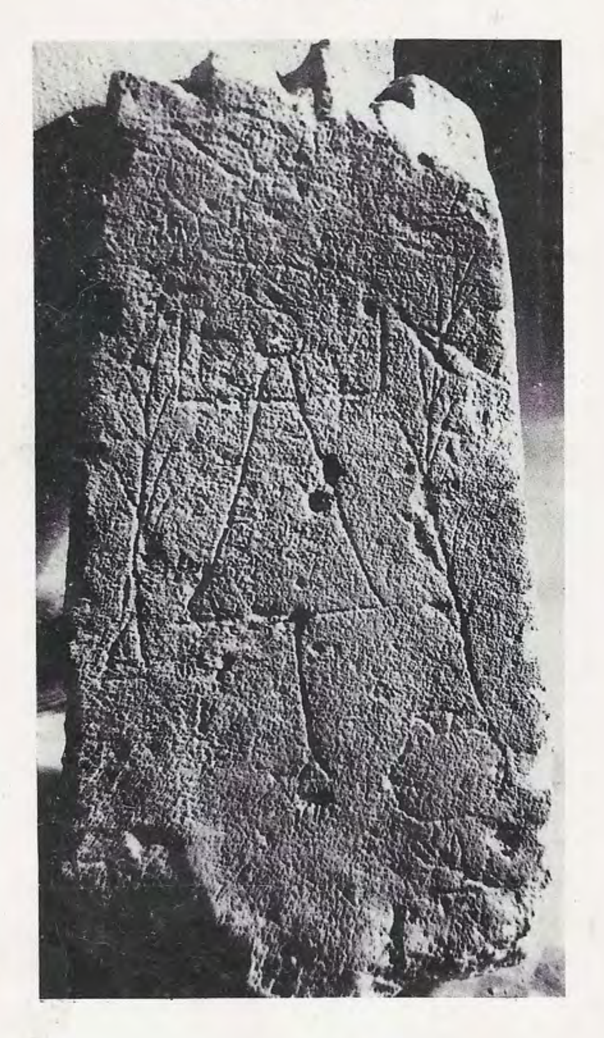
شبه جزيرة جرجيس

عبر التّاريخ



تأليف :

مجموعة من الباحثين

نشر جمعيّة المحافظة على التّراث بشبه جزيرة جرجيس

شبه جزيرة جرجيس

عبر التاريخ

تونس : سبتمبر 1995

أعد الكتاب للطبع

مركز الدراسات والتنمية والانجاز الفني - مدتاف

شبه جزيرة جرجيس

عبر التّاريخ

تأليف مجموعة من الباحثين

توطئة : بقلم أحمد فريعة
أستاذ بالمدرسة القومية للمهندسين
عضو مجلس النواب

إعداد وتنسيق : سالم لبيض و علي درين

نشر جمعيّة المحافظة على التّراث بشبه جزيرة جرجيس

صورة الغلاف :

مسلّة بونيّة اكتشفت بمدينة زيان (زيطا غرب جرجيس) تحتوي على مجموعة من الرّسوم : رسم للعلامة المنسوبة لتانيت الهة قرطاجة تحيط بها رسوما لغصني زيتون ومن الأسفل على اليمين نشاهد رسما لرمّانة. هذه الإشجار اشتهرت بها شبه جزيرة جرجيس منذ القديم – القرن II – I ق.م.

محفوظة بمتحف جرجيس تحت عدد .22 cb

الفهرس

القسم العربي :

القسم الفرنسي :

تقديــــم

علي درين - سالم لبيض

إنّ شبه جزيرة جرجيس لا تزال تشكّل حقلا في منتهى الخصوبة بالنّسبة إلى البحث العلمي والتّاريخي والأنتروبولوجي، ولعلّ من أبرز الدّلائل على صحّة قولنا، هو عدم صدور أي كتاب حول هذه الجهة منذ أكثر من ستّين سنة. فالعمل الوحيد الذي صدر تمثّل في كتيّب صادر سنة 1931 عن "مصلحة الشّؤون الأهلية" (بيرو-عرب) تحت عنوان Historique de l'annexe des affaires indigènes de Zarzis. وقد كان ذلك في إطار الإحتفال بخمسينيّة الحماية الفرنسيّة على تونس.

كلّ ذلك يؤكّد ما ذكرناه من أن هذه المنطقة تكتسي أهميّة كبرى، وهو ما جعلها محل دراسة واهتمام في السّنوات القليلة الماضيّة ضمن استراتيجية علميّة تقوم على تشجيع النّشر وإنشاء مجموعة البحث والدّراسة في محاولة لخلق مراكز إهتمام لدى الباحثين وخاصّة الشبّان منهم. وإن من نتائج كلّ ذلك ظهور عدّة أبحاث سواء في مستوى الدّكتوراه أو شهادتي الدّراسات المعمّقة والكفاءة في البحث في الجامعات تهتمّ بتلك المناطق التي لم تشكّل في السّابق مركز إهتمام لدى أجيال سابقة من الباحثين.

لقد كان من الضروري على الباحثين الشبّان أن ينظروا نظرة تأمّل في هذا الماضي عسى أن يستطيعوا تجاوز ثغراته. في هذا الإطار يتنزّل عملنا المتواضع والمتمثّل في إصدار هذا الكتاب حول "منطقة جرجيس" تحت عنوان (شبه جزيرة جرجيس عبر التّاريخ) في محاولة للتقليل من حجم النّقص في الدّراسات حول موضوعنا، ولفتح باب الدّراسات والبحث أمام أجيالنا المقبلة لتعمّق النّظر وتثري الحوار العلمي البنّاء، فالمعرفة العلميّة مازالت تمثّل الأساس الصّلب لأي توجّه يهدف إلى إقامة تنميّة حقيقيّة بأبعادها الإقتصاديّة والإجتماعيّة والثّقافيّة، خاصّة وأن مشكلة التنميّة لم تعد مرتبطة بالمقولات العامّة بقدر ما أصبحت إهتماما بالمجتمع المحلّي وبالفاعلين الإجتماعيين.

كما أنّ أهميّة هذا الكتاب حول شبه جزيرة جرجيس تتمثّل في كونه وثيقة تاريخيّة لكلّ المهتمّين بتاريخ الجنوب التونسي عموما وبمدينة جرجيس وبتراثها خصوصا، وهو في الوقت نفسه وثيقة هامّة للباحثين والجامعيين الذين يسعون وراء الحقيقة العلميّة، فهو نتاج عمل جاد بدأت نواته من خلال ندوة عمليّة ثقافيّة نظّمتها "جمعيّة المحافظة على التّراث بشبه جزيرة جرجيس" سنة 1993 تحت عنوان "ملامح من تاريخ جرجيس" في إطار النّشاط الصيفي "لمهرجان الإسفنج"، ليتطور هذا العمل وينمو في شكل كتاب بمشاركة عديد الأساتذة والباحثين، وقد تفضّل الأستاذ أحمد فريعة بكتابة توطئته.

كما تجدر الإشارة إلى أنّ هذا العمل يحتوي على دراسة لـ Menouillard نشرت ب"Revue Tunisienne" سنة 1905 تحت عنوان: "Une noce à Zarzis, la danse des cheveux".

لقد حرصنا على تقديم عمل متنوّع وجاد شارك فيه كلّ من المؤرّخ وعالم الإجتماع وعالم الآثار وعالم الجيولوجيا والإتنولوجي، ويرمز كلّ ذلك إلى تواصل الحقول المعرفيّة وتداخلها.

في نهاية هذا التّقديم نشكر كلّ من شارك في هذا العمل ليرى النّور، نخصّ بالذّكر الباحثين المشاركين في هذا الكتاب، وجمعيّة المحافظة على التّراث بشبه جزيرة جرجيس إضافة إلى الوكالة الوطنيّة لاستغلال التّراث الأثري والتّاريخي بتونس والسلط الجهويّة بمدنين والمحلية بجرجيس.

وكلّ من سار على الدّرب وصل، والله ولي التّوفيق.

سالم لبيض، باحث علم اجتماع.
على درين، باحث بالمعهد الوطني للتراث.

توطئــــة

بقلم أحمد فريعة
أستاذ بالمدرسة القوميّة
للمهندسين بتونس،
عضو مجلس النوّاب.

إنّه لمن دواعي الإعتزاز أن أقدّم إلى القارئ الكريم هذا الكتاب الذي طالما انتظره الكثيرون والجامع لعدد من المقالات القيّمة تفضّلت بإعدادها مجموعة من الباحثين في اختصاصات مختلفة حول تاريخ شبه جزيرة جرجيس عبر العصور.

ويأتي هذا العمل القيّم لملء فراغ دام فترة طويلة افتقرت خلالها المكتبة الثقافيّة الوطنيّة لمرجع بحثي عامّ حول تاريخ هذه المنطقة الهامّة والإستراتيجيّة من الجنوب التّونسي بالرّغم من ثراء المادّة التّاريخيّة ومن تعدّد المراجع المحوريّة.

ولعلّ ممّا يزيد هذا العمل أهميّة وتميّزا، إضافة إلى ما ذكرنا، اعتماد الدقّة في التّحليل والموضوعيّة والتّحرّي في اعتماد الوثائق المقدّمة والنّقد البنّاء للمراجع المستعملة وهي لعمري من الشّروط الضروريّة لكلّ انتاج علمي جادّ وهادف. ثمّ، وبالإضافة إلى الأهميّة التي تكتسيها هذه البحوث التاريخيّة والأركيولوجيّة والإنتروبولوجيّة على المستوى العلمي والمعرفي، فإنّها تساهم بقدر كبير في تجذير الهويّة وتدعيم الشّعور بالإنتماء الحضاري وتساهم، انطلاقا من ذلك في تثبيت قيم التّضامن والتّسامح والإخاء بين أبناء الشّعب الواحد.

في هذا الإطار يتنزّل هذا العمل الجماعي المتميّز الذي بين أيدينا. ومن خلال قراءة المساهمات الواردة فيه، يمكن الوقوف بالخصوص على نقطتين هامّتين:

أوّلا : مدى ارتباط تاريخ هذه المنطقة بتاريخ تونس ككلّ، حيث تعاقبت عليها كما على تونس حضارات ما قبل التّاريخ، إذ تبرهن الدّراسات التي انجزت على ضفاف سبخة المالح على تداول هذه الحضارات منذ ستّة آلاف سنة خلت، كما أنّها عرفت الحضارات البونيّة والرّومانيّة والبيزنطيّة مع تواجد متميّز للبونيين حيث تمّ إحداث مدينة زيطا التي كان لها اشعاع كبير بين سرت الصغرى (خليج قابس) وسرت الكبرى (بليبيا) وقد لعب الموقع المتميّز والإستراتيجي لشبه جزيرة جرجيس دورا هامّا في جلب مختلف هذه الحضارات وفي جعلها من المحطّات الهامّة على ضفاف البحر الأبيض المتوسّط.

ثمّ أتى الفتح الإسلامي وبالرّغم من تقلّص المراجع حسب ما يبدو حول تاريخ هذه المنطقة خلال القرون الأولى لهذا الفتح، فإنه بالإمكان القول بأنّها لم تكن بمعزل عن الأحداث والتّحوّلات الكبرى التي عاشتها البلاد التّونسيّة ككلّ.

وتبقى المعطيات الأكثر ثراء تلك المتعلّقة بفترة ما بعد الإحتلال الإسباني حيث تعدّدت الأساطير بخصوص أصل قبيلة عكّارة، وهي التّسميّة الحاليّة لمواطني جرجيس، وتبقى الأطروحة الأكثر رواجا هي القائلة بأنّ جدّ عكّارة الولي "سيدي الصيّاح" استقرّ بالجهة في أواخر القرن السادس عشر ميلادي قادما من السّاقيّة الحمراء في اتّجاه مكّة المكرّمة لأداء فريضة الحج وهو من الأشراف الأدارسة، توفّي ببنقردان حيث يوجد ضريحه وانتقل أبناؤه في البداية إلى جربة ثمّ استقرّوا بجرجيس. وقام علي باي ببناء برج بمدينة جرجيس في النّصف الثّاني من القرن الثّامن عشر لحماية عكّارة من القبائل الغازية وخاصّة منها قبيلة النّوايل التي كانت تقوم بغارات مستمرّة انطلاقا من التّراب اللّيبي.

ثانيًا : الحركيّة الإقتصاديّة والتّجاريّة التي عرفتها هذه الجهة عبر التّاريخ حيث اعتنى متساكنوها بصفة متواصلة بخدمة الأرض وغرس الزّيتون والأشجار المثمرة وصيد السّمك والإسفنج وتعاطي التّجارة بما يحتمّه ذلك من تنقّل إلى خارج شبه الجزيرة ممّا كيّف، إلى حدّ بعيد، شخصيّة المواطن بهذه الرّبوع فكان محبّا للأرض، متعلّقا بها إلى حدّ الشّغف، متفتّحا على الغير، مخلصا في صداقته، معطاء.

وانطلاقا من الموقع الجغرافي المتميّز لهذه المنطقة فقد راودت المستعمر خلال أواخر القرن التّاسع عشر، فكرة جعل جرجيس قطبا اقتصاديّا هامّا في الجنوب التّونسي وذلك بإنشاء ميناء تجاري كبير علىضفاف بحيرة بوغرارة وإحياء مدينة "جكتيس" الأثريّة من جديد وربط هذا الميناء بالتشاد والبلدان الإفريقيّة المتواجدة جنوب الصّحراء الكبرى مرورا بالتّراب الجزائري عن طريق سكّة حديديّة اصطلح على تسميّتها : "العابرة للصحراء". لكن هذا المشروع الطّموح لم ير النّور غير أنّه بقي من المحاولات الرّاميّة إلى جعل جرجيس وكامل الشّريط السّاحلي لسهل الجفارة إحدى البوّابات الهامّة لإفريقيا في شمال القارّة.

ولنعد الآن إلى تاريخ شبه الجزيرة لنذكر بأنّه خلال الإحتلال الفرنسي قام مواطنوها بمقاومة المستعمر وشارك العديد من رجالات الجهة في المقاومة المسلّحة واستشهد العديد منهم دفاعا عن الوطن وعن الكرامة.

وبقدر اعتزازنا بهذا التّاريخ الحافل بالأمجاد بقدر اعتزازنا بما تحقّق من انجازات في ظلّ الإستقلال. وهاهي جرجيس بدعم متواصل من لدن الرّئيس زين العابدين بن علي تشيّد بأياد بيضاء أمينة مستقبل الإجيال اللاّحقة وقد تتالت الإنجازات التي يطول سردها.

غير أنّه لا بدّ من التذكير بالميناء التّجاري الهام الذي دخل بعد حيّز الإنتاج وبالمنطقة الحرّة التي هي الآن بصدد التّهيئة والتي سيكون لها حتما دور هامّ في تدعيم النشاط الإقتصادي بالجهة وعلى المستوى الوطني عموما.

وبإمكان جرجيس بفضل هذا المشروع الرّائد أن تلعب دور بوّابة إفريقيا عبر الطّريق الصحراويّة وتكون قد حقّقت حلما راود عديد الأجيال المتلاحقة كما ذكرنا سابقا.

وتبقى الفلاحة وخدمة الأرض إحدى الرّكائز الإقتصاديّة للمنطقة وهي في الحقيقة استمرار لنشاط يرجع عهده إلى أعماق التّاريخ. وممّا يثلج الصدر النّضال المتواصل لإبناء الجهة في سبيل تحقيق الإكتفاء الذّاتي انطلاقا من خيار سياسي

محوري، وما المساحات الكبرى التي تتحوّل سنويًا من أراضي مقفرة إلى أجنّة تدرّ الخيرات، خاصّة في منطقة الجدارية وغيرها بفضل كدّ المواطن في هذه الرّبوع، إلاّ دليل قاطع على ذلك.

كما لا يفوتني التنويه بالمتحف الأثري الذي هو بصدد الإنجاز والذي سيكون له دور هام في التّعريف بالتّاريخ الثّريّ لهذه المنطقة وفي دعم الحركيّة الثّقافيّة بها والتي بدونها تكون التنميّة مبتورة وهشّة.

شكرا لكلّ المساهمين في إعداد هذا الكتاب وهنيئا لهم بهذا الإنجاز الذي سيكون له حتما أفضل الأثر لدى القرّاء عموما ولدى المثقفين والشّباب بصفة أخصّ.

وشكري وتقديري للمجهود الكبير الذي بذله ولا يزال السيّدان علي درين وسالم لبيض اللّذان قاما بالتّنسيق بين مختلف المساهمات والوقوف على الإعداد المادي والذي بدونه لما كان لهذا الكتاب أن ينجز كما أتقدّم بالشّكر إلى جمعيّة المحافظة على التّراث بشبه جزيرة جرجيس لاحتضانها هذا العمل.

والله ولي التّوفيق . والسّلام.

الأستاذ أحمد فريعة.
تونس جويلية 1995.

الطّبيعة الجيولوجيّة والموارد الطّبيعيّة لشبه جزيرة عكّارة

محمد الشّاذلي ربيع
أستاذ مساعد بجامعة تونس II

نظرة عامّة :

تمثّل شبه جزيرة عكّارة جزءا لا يتجزّأ من السّهل المعروف بسهل جفارة. وهو سهل منخفض يفصل بينه وبين سلسلة جبال الظّاهر مجموعة من التكسّرات ذات اتّجاه شمال 120 –140 ومن بينها الفالق المسمّى بفالق مدنين – بن قردان. ويمثّل هذا الفالق العضو الجنوبي لمجموعة فوالق قفصة المشهورة والتي تمتدّ إلى ليبيا.

ويمكن لنا تقسيم الجفارة إلى قسمين :

أ – الجفارة القاريّة المتّصلة عضويّا بسلسلة الظّاهر وتتكوّن ركائزها من صخور قديمة تنتمي إلى العهدين الترياسي (Triasique) الممتدّ من 250 مليون سنة إلى 210 مليون سنة واليوراسي (Jurassique) الممتدّ من 210 مليون سنة إلى حدود 140 مليون سنة. وقد تمّت تعريّة أغلب هذه الصّخور ممّا جعلها ظاهرة للعين في مناطق تطاوين، على أنّها مغطّاة في بعض المواقع بأتربة تنتمي للعصر الرابع (1– مليون سنة).

وفي أقصى شمال الجفارة وبالتّحديد في جبل طباقة بمدنين توجد أقدم صخور ظاهرة للعين في تونس. وتنتمي هذه الصّخور للبرميان (Permian) (290م. س إلى 250 م. سنة).

ب – الجفارة البحريّة والتي تضمّ شبه جزيرة عكّارة وهي عبارة عن منخفضات تكتونيّة ملئت بصخور تنتمي إلى العهدين الثّالث (66 م.س إلى 1م.س) والرّابع.

وممّا يميّز الجفارة البحريّة عن المناطق المجاورة هي تلك الفسيفساء من الهضاب (كشبه جزيرة جرجيس وجزيرة جربة وشبه جزيرة الجرف) والمنخفضات التي ملئت في ما بعد بالسباخ والبحيرات كسبخة المالح بجرجيس وسبخة الميدر وسبخة بوقرين وسبخة بوجمل وبحيرات البيبان وبوغرارة.

I- طوبوغرافيا الجفارة البحريّة :

تتميّز الطّوبوغرافيا في سهل الجفارة البحريّة برتابة واضحة. وممّا يلاحظ هنا هو الإنخفاض الشبّه الدّائم في اتّجاه البحر مع وجود بعض السقوطات في بعض المواقع. ويتراوح الإرتفاع فوق البحر بين المتر والعشرات من الأمتار على أقصى تقدير. وتتمثّل الحالة الوحيدة للتّنوّع في الطّوبوغرافيا في وجود السّباخ وبعض مجاري الأوديّة.

على السّواحل تنتهي هذه الطوبوغرافيا سواء في بحار ميّتة بترسّبات طينية أو شواطئ حيّة ذات مساحة محدودة في أغلب الأحيان أو سقوطات مثلما يوجد على حافة بحيرة بوغرارة.

على أن التّواصل بين الطّوبوغرافيا القارية والبحريّة متأكد وهو ما تظهره لنا الصّورة الممثلة لمعطيات القمر الصناعي S P O T.

II- الطّبيعة الجيولوجيّة للجفارة البحريّة :

تمثّل الجفارة البحريّة كما قلنا سابقا سهلا ينتمي إلى العهد الثالث (Certiaine) (24 م.س إلى 5،5 م.س) وهو مركّب من أتربة وصخور طينية وجبسيّة تغطّي الجزء المنهار لقبّة مدنين (Dôme) على أن الغشاء الفوقي لهذه التركيبة يتمثّل في سقف من الصّخور الصلبة تنتمي إلى أوائل العصر الرّابع (Villa Franchien).

و لسائل أن يسأل : أين هيّ الصّخور القديمة التي تنتمي إلى العهدين اليوراسي (Jurassique) والطباشيري (Crètacé) والتي تظهر للعين في الجفارة القارية وسلسلة الظّاهرة ؟

جوابا على هذا السؤال نقول بأن الوصول إليها والتعرّف على طبيعتها لم يتسنّ الاّ بفضل الحفريّات البترولية التي أعطتنا فكرة عامّة عن الصّخور القديمة الموجودة تحت سهل الجفارة البحريّة.

أ -الأتربة والصّخور المنتميّة للعهدين الثّالث وأوائل الرّابع (Mio-pliocène):

تمثّل هذه الأتربة والصّخور الرّكيزة الأقدم الظّاهرة للعيان في سهل جفارة البحريّة وفي شبه جزيرة عكّارة. وترى هذه المكوّنات في بعض الآماكن مثل بعض سواحل جُربة وعلى طول السّاحل بين قصر الزّاوية وصانغو بجرجيس وهي تمثّل في أغلب الأحيان سقوطات. كما نجدها في وادي التياب ورأس الظّهرة وهنشير المحاريق وهي تلك الطينة الحمراء والرّمال الصفراء التي يقع استغلالها في بعض المقاطع بالمنطقة.

أمّا في جنوب شبه الجزيرة فإنّ الميوبليوسين (Mio-pliocène) يرى حوالي سبخة المالح على أن الطّين هنا يصبح مخلوطا بالجبس. كما يلاحظ وجود قضّة "Conglomérat" في أعلى الطبقة في كثير من الأحيان ممّا يدلّ على بداية مناخ جديد تتحدّد معالمه مع العهد الفيلا فرانكي Villa franchien ويمثّل الشّكل رقما وصفا على غرار الطّبقة بدراع الأحناش.

ب- الغشاء أو السّقف الفيلا فرانكي Villa franchien:

يغطّي الطّبقة السّابقة في أكثر الأحيان سقف أو غشاء من الصّخور الكلسيّة الصّلبة التي تتميّز بكثرة بقايا الحلزونيات Hélicides ذات اللّون الرّصاصي.

ويظهر هذا الغشاء الذي يتراوح سمكه من 0،5 م إلى 2 م في أغلب مناطق جزيرة جربة وشبه جزيرة الجرف وشبه جزيرة عكّارة.

في منطقة جرجيس وعلى شكل الغطاء الصلب للسلحفات يمكن أن نرى هذه الطّبقة الكلسيّة في كلّ من رأس الظهرة وَ"جبال" الزاوية والسويحل. كما يظهر هذا السقف حذو المنحدرات المحاذيّة للشّواطئ ممّا يمكّن من معرفة حقيقة مكوّناتها.

ونلاحظ هنا أنّ أغلب البناءات القديمة بالمنطقة قد بنيت بفضل هذه الصّخور التي مازالت تستغلّ إلى اليوم لنفس الغرض.

ج- الطّبقات البحريّة للعصر الرّابع :

ممّا يميّز سهل الجفارة البحريّة هو وجود طبقات تنتمي إلى العصر الرّابع تكوّنت تحت مياه البحر وتوجد الآن أساسا حذو السّباخ والشّواطئ الحاليّة ممّا يؤكّد وجود البحر حتى عهدا قريبا داخل شبه جزيرة عكّارة. وعلى إثر دراسات معمّقة لهذه الطّبقات ومقارنتها بشبيهاتها المعروفة حذو الشواطئ الشّماليّة والشّرقيّة للبلاد التّونسيّة يمكن أن ننسبها للعهد التيريني (Tyrrhènien).

ولوصفها نقول بأنّها صخور وأتربة تتميّز باحتوائها لحيثيات من حيوانات Strombus Bobonus الكبيرة الحجم. ويمكن أن نقسّم هذه الطّبقة إلى قسمين هما :

أ – قسم سفلي يشبه التركيب الصغير المعروف بتركيب الرجيش وينتمي إلى الايتريينيان Eutyrrhènien (000 120 سنة). ويتركّب هذا القسم من حجر رملي كلسي غنيّ بالأوليت (Oolites) يقول بعض العلماء أنّها كانت كثبانا رمليّة وكلسيّة وقع تراصّها.

وتوجد هذه الصّخور حوالي بحيرة البيبان حيث تكوّن الرّكيزة الأساسيّة للصّلب، وهي ما يسمّى في المنطقة "بالشخش" الذي تمّ استغلاله للبناء.

ب – قسم علوي يشبه التّركيب الصّخري المعروف بتركيب الشابة وينتهي إلى النيوتيرينيان Néotyrrhénien 80 ألف سنة ويتركّب هذا القسم من خليط Conglomérat يعليه كثبان من الأوليت.

ج- المكوّنات الأخرى : يوجد في سهل الجفارة البحريّة وفي شبه جزيرة عكّارة بالذّات وفي كثيرة من الواقع غشاوة جبسيّة ورمال كلسيّة، بجربة موجودة حول السباخ عادة وهي تنتمي إلى أواخر العهد الرّابع والعصر الحالي.

III- الخصائص البنيويّة للمنطقة :

ممّا يلاحظ أن التّركيب البنيوي الحالي لمنطقة الجفارة قد حصل إثر تحرّكات وانزلاقات تكتونيّة نتيجة لحركات باطنيّة نجد صداها في صخور العهدين الثالث والرّابع.

وقد مكّنت الدّراسات الجيولوجيّة للمنطقة سواء عن طريق المتابعة المباشرة لسطح الأرض أو عن طريق تحليل المعطيات الجيوفيزيائيّة وصور الأقمار الإصطناعيّة من رصد هذه التّصدّعات.

ويمكن ترتيب هذه التصدّعات ضمن مجموعات متناسقة هي :

1- مجموعة التصدّعات التي يتراوح اتجاهها بين شمال 120 وشمال 140 وهي تصدّعات موازية لفالق مدنين - بن قردان. وقد بدأت الحركات التكتونية التي أعطت هذه الانكسارات منذ العهد الثالث وتحديدا في عصر الأوليقوسين (Oligocène) ممّا نتج عنها انهيارات متتابعة على شكل مدرّجات (Gradins)

2- مجموعة التصدّعات التي اتجاهها ش 60 تقريبا متقاطعة مع المجموعة الأولى ممّا أنتج فسيفساء من النتوق (Horst) المرتفعة والمنخسفات (Giraben) المملوءة بالصّخور الميوبليوسينيّة. ويترجم هذه التركيبة حاليا ولو بأوّل حدّة تواجد الهضاب والمنخفضات كالسباخ والبحيرات.

3- تصدّعات ذات اتّجاه شمال جنوب ويظهر كمثال على ذلك تصدّع السويحل بجرجيس. ويمكن لنا أن نربط وجود هذه التصدّعات والتقّرسات التي نلاحظها في سهل الجفارة البحريّة إلى حوادث بنيويّة رئيسيّة حدثت منذ العهد اليوراسي .

VI - لمحة عن بعض الموارد الطبيعيّة :

1- المياه الجوفيّة :

شبه جزيرة عكّارة ليست فقيرة جدّا من حيث المياه الجوفيّة. على أن هذه المياه كثيرة الملوحة وغير صالحة للإستعمال غير الصناعي حاليّا. ويمكن أن تحصر الموائد المائيّة بالمنطقة في :

أ – طبقة الرّمال البحريّة التيرينية Tyrrehnèen .

ب– العدسات الرمليّة الموجودة في طبقات الميوبليوسين Miopliocène.

ج – بعض العدسات الرمليّة ورمال بعض الأوديّة المنتميّة للعصرين الرّابع والحالي.

كما أن بعض الطّبقات المنتمية للعهود القديمة كالطّباشيري واليوراسي تحتوي على كميّات من الماء أفرزتها الحفريات البترولية.

2 – المياه السائلة :

نظرا للطّبيعة الشّبه الصحراويّة بالجهة، تعتبر المياه القارية السائلة في الأوديّة شبه مفقودة أو منعدمة تماما. على أن الثّروة المائيّة البحريّة يمكن إعتبارها مخزونا لا ينضب خاصّة إذا ما أمكن تحليتها بواسطة محطّات تحليّة وهو ما أصبح يسيرا من النّاحيّة التقنيّة.

3– الموراد البترولية :

في شبه جزيرة عكّارة هناك حقلان يحتويان على البترول ولو بكمّيات مختلفة. هذان الحقلان هما حقل الزّاوية الذي بدأ استغلاله منذ 1989 وحقل البيبان وهو حقل بحري. في ما يلي لمحة عامّة عن بداية الحقلين والطّبقات الحاملة للبترول.

أ– التّاريخ البنيوي للحقلين :

لقد تكوّنت بنيتا حقلي الزاوية والبيبان في أواخر العهد الطّباشيري وذلك على إثر الضغط المعروف بالضغط المتتوني Compression Santotenne. ويمكن وصف حقل الزاويّة بأنّه إلتواء محدّب ذو اتجاه شمال شرقي جنوب غربي NE.SW موجود حذو صدع منزلق : وهذا الوصف يمكن أن يطبّق على الحقل الأصغر المسمّى بحقل البيبان.

ب- الطّبقات الحاملة للزّيت :

في حقلي الزاوية والبيبان يوجد البترول على بعد 950 مترا وذلك في الجهة الشّماليّة الشّرقيّة للحقل. وممّا يلاحظ أن الخزّان الزيتي مكوّن أساسا من :

الدولوميت Dolomite الكثير التشققات والتجوّفات والمتواجدة في مساحة غير متوافقة بين الطباشيري والعهد الثالث. ويوافق هذا الموقع التركيب المسمّى بالزباق Zebbag والمعروف في الأطلس الجنوبي التّونسي.

مع بعض الفروقات الصغيرة فإن الزيت الموجودة بحقل البيبان يوجد بنفس التركيب أي تركيب الزباق وذلك على عمق 2150 م. وممّا يلاحظ هو أن هذا الحقل يعتبر صغيرا بالنسبة لحقل الزاوية.

ج- الموارد الطبيعيّة الأخرى :

وإن كانت منطقة الجفارة البحريّة فقيرة من حيث الصخور الصالحة للبناء فإن الدّراسات الجيولوجيّة تؤكد وجود الرّمال الصالحة لهذا الغرض وذلك بجرجيس وقرب بن قردان. كما إن إمكانيّة استغلال الأملاح مازالت واردة وخاصّة بسبخة العذيبات.

أمّا من ناحيّة الطّاقة الطبيعيّة فإنّ إمكانيات المنطقة هائلة سواء كانت طاقة شمسيّة أو هوائيّة أو هيدروليكية (استغلال مياه البحر) أو طاقة مستخرجة من التفاعلات الكيمائية وسط السباخ.

محمد الشاذلي ربيع

تاريخ شبه جزيرة جرجيس
من فترة ما قبل التّاريخ إلى الفترة البيزنطيّة

علي درين
باحث بالمعهد الوطني للآثار.

تقع شبه جزيرة جرجيس بأقصى الجنوب الشّرقي التّونسي، يحدّها البحر الأبيض المتوسّط من الشّمال ومن الشّرق وخليج بو غرارة من الغرب وتتكوّن من سهل ساحلي ينتمي إلى الجفارة يمتدّ من رأس مرمور شمالا إلى وادي فسّي جنوبا، ومن هضبة تغطّي كل من هنشير زيان ورأس تظهرة أين يصل ارتفاعها إلى 79 متر تقريبا، كما تتخلّل هذا السّهل مجموعة من سباخ كسبخة المالح وسبخة بوجمل بالجنوب الشّرقي وسبخة عين معيذر بالشّمال الغربي، كما تغطّيه من السّاحل الجنوبي بحيرة البيبان التي يفصلها عن البحر تلّ مستطيل يسمّى الصّلب ينقسم إلى جزئين : الصّلب الشرقي (أو البرّاني) والصّلب الغربي (أو الدّخلاني).

يتميّز سهل الجفارة عموما بمناخ شبه صحراوي مع قلّة وعدم انتظام التّساقطات فهو ينتمي إلى خطوط التماطر بين 40 و 200 ملم غير أن معدّل الأمطار بالجهة الساحليّة لهذا السهل (والمتكوّنة من جزيرة جربة وشبه جزيرة جرجيس) يفوق 200 ملم في السنة وهذا راجع إلى التأثير الإيجابي للبحر لأن هاتين المنطقتين معرّضتان للرّياح الشّماليّة الشّرقيّة المتسبّبة عادة في نزول الأمطار.

I - فترة ما قبل التّاريخ :

لقد سجّل المختصّون في علمي ما قبل التاريخ والجيولوجيا وجودا بشريا هامّا في شبه جزيرة جرجيس وذلك من خلال دراستهم لعدد من اللقي الأثريّة التي اكتشفها "بارتويزو" "**Perthuisot**" في سبخة المالح جنوب مدينة جرجيس ومن بينها نذكر مجموعة من النّصال **Lamelles** ورؤوس السّهام **(pointes de flèches)** وأدوات دقيقة من حجر الصوّان **(Microlithes)** وقد أرجع المؤرّخون هذه اللّقي إلى الفترة النيوليتية **Néolithique** أي العصر

الحجري الحديث ذو التّقاليد القفصيّة (4000 سنة ق.م) ممّا يؤكّد أن سبخة المالح والسّباخ الأخرى الممتدّة في محيط شبه جزيرة جرجيس كانت عامرة بالسكّان خلال هذه الفترة لأنّها كانت توفر لمتساكنيها كلّ متطلّبات الحياة والمعتمدة آنذاك بالخصوص على الزّراعة والرعي.

II – الفترة الفينيقيّة ثمّ البونيّة (القرطاجيّة) :

منطقة سرت في القديم :

تنتمي الجهة السّاحليّة للجنوب الشّرقي التونسي قديما إلى ما يسمّى "منطقة سرت" "La région des Syrtes" التي تنقسم بدورها إلى منطقتين سرت الصغرى La Petite Syrte المطابقة لخليج قابس، تبدأ من جزر قرقنة إلى رأس زيطا Cap Zitha (رأس مرمور شمال جرجيس) وسرت الكبرى Grande Syrte المطابقة لسواحل ليبيا الحالية الممتدّة من مصراطة حتى مذابح الفيلاّن Autels des Phillènes غرب مدينة بنغازي.

أمّا المنطقة الموجودة بين سرت الصغرى وسرت الكبرى فقد دأب المؤرخون على تسميّتها بمنطقة سيرتيك Syrthique بالفرنسيّة أو Syrtica باللاّتينيّة وهي التي تنتمي إليها شبه جزيرة جرجيس. كما أطلق المؤرّخان بوليب (قII. ق.م) وتيت ليف (ق.1.ق.م 1.م) على هذه المناطق إسم الأمبوريا Les Emporia وهي كلمة فينقيّة الأصل وتعني "الأسواق" أو "المصارف التّجاريّة" أو "المناطق الخصبة" وتشمل زيادة على بعض الموانيء والمدن الساحليّة جزءا من الأراضي الدّاخليّة المطابقة لسهل الجفارة الحالي. كلّ هذه التسميات وردت في نتاج المؤرّخين الإغريق والرّومان الذين كتبوا كثيرا عن هذه المنطقة نظرا لأهميّتها الإستراتيجيّة والإقتصاديّة وهذه الأسباب هي التي تفسّر تعاقب الحضارات عليها.

علاقة الفينيقيّين بالجنوب الشّرقي التّونسي :

كان الفينيقيّون يسكنون سهول السّاحل الشّرقي للبحر الأبيض المتوسّط في المناطق المطابقة للبنان الحاليّة وقد تأثّروا كثيرا بالبيئة التي عاشوا فيها. ومن أبرز النّواحي التي ظهرت فيها آثار البيئة في حياتهم هي النّشاط البحري، فقد

كانت جبال لبنان التي تقع خلف المدن الفنيقيّة تحول دون الوصول إلى السهول الكبرى بالأقاليم الدّاخليّة ممّا جعل السكّان يتّجهون إلى البحر ويتّصلون بالشّعوب الأخرى لتنمية تجارتهم.

وقد بدأ التوسّع الفينيقي في اتجاه الحوض الغربي للمتوسّط بكثافة منذ القرن 12 ق.م وذلك بعد أن أغار عليهم شعوب البحر التي غزت آسيا، وكان من نتيجة هذا الغزو تدمير المدن الفينيقيّة خاصّة صور وصيدا، وهكذا لم يجد الفينيقيّون وبالخصوص أهالي صور مفرّا من أن يتّجهوا إلى البحر خاصّة في اتّجاه الحوض الغربي منه لتنمية تجارتهم. وقد قصد الفينيقيّون في أوّل اتصالهم بالحوض الغربي للمتوسّط سواحل اسبانيا الجنوبيّة لجلب معادن الفضّة والقصدير وجدوها متوفّرة في مدينة قادش قرب مصبّ الوادي الكبير وهي من أقدم المدن التي أسّسها الفينيقيّون في هذه المنطقة.

وعند رجوعهم من إسبانيا قاصدين الشّرق أحدث الفينيقيون عددا من المحطّات التّجاريّة على سواحل سرت يلتجؤون إليها خاصّة وأنّهم كانوا يستعملون طريقة المساحلة Cabotage في تنقّلاتهم نظرا لخطورة خليج سرت الصغير. ولم تكن المنشآت الفينيقيّة الأولى تمثّل سوى محطّات على طريق المعادن من شبه الجزيرة الإيبيريّة نحو مراكز الحضارات الشّرقيّة الكبرى. وعندما اشتدّت جسارة الفينيقيين على السيطرة على البحر تضاعفت تجارتهم، ولتأمين نشاطهم التّجاري كوّنوا مستعمرات من أهمّها قرطاج التي أحدثت في نهاية القرن 9 ق.م حسب المصادر الأدبيّة الكلاسيكيّة.

شبه جزيرة جرجيس خلال الفترة البونيّة :

كانت قرطاج في أوّل الأمر عبارة عن أسكلة تدفع الضرائب لصور وبفضل حيويّة طبقتها الأرستقراطيّة ونظرا لانحطاط صور وخضوعها لملوك بابل في الشّرق نجحت في فرض حمايتها على المراكز التّجاريّة الفينيقيّة ودافعت عنها بشدّة أمام التّوسّع الإغريقي، كما نجحت كذلك في إحداث مستعمرات جديدة وقد ذكر المؤرّخ اليوناني هيرودوت (ق.5.ق.م) أن القرطاجيين كانوا يسيطرون على منطقة

سرت الصغرى منذ القرن 6.ق.م. كما ذكر المصدر الإغريقي المعروف ب "رحلة سكيلاكس المزعوم" (منتصف القرن 4.ق.م) من أن المراكز السّاحليّة ابتداء من سرت الكبرى حتى أعمدة هرقل Les colonnes d'Hercule (أي جبل طارق) كانت تتبع القرطاجيين وهكذا وعلى غرار هذه المحطّات المصرفيّة كانت ش.ج.ج. داخلة في المناطق التي سيطر عليها القرطاجيّون وذلك ابتداء من القرن 6.ق.م. إنّ آثار القرطاجيين في ش.ج.ج. متعدّدة وللحديث عن الوجود البوني في الجهة سوف نأخذ موقع هنشير زيّان كمثال لذلك لأنّه يحتوي على مدينة أثريّة هامّة.

زيطا Zitha أو زيطا Zeitha أو زيزا Ziza هي أسماء قديمة لمدينة أثريّة توجد على مرتفعات هنشير زيّان على بعد 9 كليمترات غرب مدينة جرجيس في موقع متميّز (79 متر فوق سطح البحر) وسط ش.ج.ج. والذي بفضله كان سكّان زيان قديما يراقبون المسالك التّاليّة المؤدّية :

- نحو مدينة مييننكس Meninx (هـ. القنطرة) جنوب شرق جزيرة جربة.
- غربا نحو مدينة جيقتي (هـ. سيدي سالم بوغرارة).
- جنوبا في اتّجاه لبدة الكبرى Leptis Magna بليبيا مرورا ببحيرة البيبان وصبراطة.

ورغم بعدهم عن البحر بإمكان سكّان زيطا قديما الإتّصال بالسّواحل عن طريق كلّ من ميناء جرجيس شرقا وهو الميناء الذي كان موجودا بسيدي بوتفاحة جنوب هذه المدينة وميناء هنشير الصقالة غربا أو الرّصيفات الواقع على خليج بوغرارة.

زيطا خلال الفترة البونيّة :

بدأ الإهتمام بآثار زيان منذ منتصف القرن 19 ميلادي، فقد زارها الرحّالة الألماني بارت في 30 مارس 1846 الذي وصف معالمها بدقّة كمازارها فيكتور قيران في 16 مارس 1860 وسمّاها " مدينة زيان". وفي سنة 1903 قام الضّابط تريبالي Tribalet بحفريّات تمكّن اثرها من العثور على نقيشة ترجع إلى الفترة البونيّة الحديثة Néo-Punique وتخبرنا عن وجود معبد مخصّص للآله داقان Dagan. وفي سنة 1905 قام الضّابط بوشار Bouchard بحفريّات تمكّن على اثرها من اكتشاف معبد كان مخصّصا للآلهة كايلستيس Caelestis وهي آلهة

رومانيّة قرطاجيّة أخذت مكان تانيت . Tanit آلهة قرطاجة. وأهمّ اكتشاف أثري بوني وقع حديثا في فيفري 1988 تمثّل في العثور صدفة على 185 قطعة أثريّة تتكوّن كلّها من مجموعة من الأنصاب النذريّة من الحجر الرملي من نوع رجيش أو "الشخش" كما يسمّيه أهالي عكّارة. كانت الأنصاب موضوعة في منخفض من الأرض جنوب المدينة من الأرجح أنّها مهداة إلى بعل حمون Baâl Hammon الاه قرطاجة.

تحتوي أنصاب هنشير زيان البونيّة على رسوم عديدة ومتنوّعة من بينها العلامة المنسوبة لآلهة قرطاجة تانيت (أنظر اللوحة عدد56 cb بالملحق) أو لعدد من الأشجار كالنّخيل والرّمان والزّيتون أو على أشكال هندسيّة محفورة أو منقورة في الحجر مثل المربّع أو شبه المنحرف أو المثلّث وترجع هذه الأنصاب إلى القرن الأول أو الثّاني ق.ب.

لكن الوجود البوني بشبه جزيرة جرجيس لا يقتصر على زيطا بل نراه يمتدّ إلى كامل هذه المنطقة في سيدي بوتفّاحة والعقلة والجدارية ورمّاد وهنشير الصقالة وشمّاخ وتمثّلت هذه الآثار في بقايا الدّنان والصحون والمصابيح والنّقود والمدافن.

ما هي الدّوافع التي جعلت البونيين يستقرّون بهذه المناطق ؟

لقد اشتهرت منطقة الأمبوريا قديما بأهميّة موقعها الجغرافي وبثرائها مثلما يخبرنا به المؤرّخان بوليب وتيت ليف، ذلك أنّ هذا الموقع يمكّنها من مراقبة القوافل الصّحراويّة الآتية من إفريقيا السّوداء وواحات غدامس والمتّجهة شرقا نحو الموانيء المحدثة على طول الشّريط السّاحلي لخليجي سرت الكبير وسرت الصّغير والتي استغلّتها قرطاجة ثم روما من بعدها كمصدر تموين، كما يعتبر الجنوب الشّرقي التّونسي منطقة عبور ونقطة التقاء الطّرقات والمسالك الآتية من الشّمال والقاصدة الجنوب نحو صبراطة ومصر والشّرق عموما. وقد مكّنتنا المصادر الأثريّة من الوقوف على أهميّة الأنشطة الإقتصاديّة (فلاحة وصناعة) التي كان يتعاطاها البونيون ثمّ الرومان في هذه المنطقة والمتّصلة بانتاج وترويج الزّيوت والخمور واستغلال منتوجات البحر كالسّمك المجفّف والملح واستخراج الصّباغة من صدف الأرجوان وهي صناعة اشتهر بها وأتقنها الفينيقيون ثم البونيون قديما.

كانت كلّ هذه الأنشطة متطوّرة في شبه جزيرة جرجيس مثلما سنرى ذلك بعد قليل. كلّ هذه العوامل جعلت البونيين يدافعون عن هذه المنطقة ضدّ الإغريق ثمّ ضدّ الرومان من بعدهم. وقد منعت قرطاجة الإغريق من استعمال سواحل سرت عندما أطردت في نهاية القرن 6 ق.م مستوطنين من اليونان استقرّوا بضواحي لبدة الكبرى بليبيا كما نجحت قرطاجة أيضا في إقصاء روما وابعادها من مناطق نفوذها عندما منعتها من استعمال جزيرة سردينيا وسواحل ليبيا وبالتّالي من احداث مستعمرات وتركيز مستوطنين رومان، لكن هذه السياسة لم تدم طويلا بسبب تعاظم قوّة روما فلم تتمكن قرطاجة من الصمود أمامها والمحافظة على مصالحها خاصّة إذا أضفنا المشاكل الدّاخليّة التي أصبحت تواجهها والمتأتيّة من خلافاتها مع سكّان البلاد بسبب الضرائب المجحفة التي يدفعونها أو خلال ثورة المرتزقة (240 237 ق.م) التي انهكت اقتصادها. وقد انتهت المواجهة بين روما وقرطاجة بتدمير هذه الأخيرة وذلك عقب الحرب الثّالثة التي دارت بينها وبين روما سنة 146 ق.م.

وبالتّوازي مع سقوط قرطاجة برزت قوّة إفريقيّة جديدة بزعامة النوميديين وعلى رأسهم القائد ماسّينيسا Massinissa الذي أدرك هو أيضا الأهميّة الإقتصاديّة لمنطقة الأمبوريا فاحتلّها سنة 162 ق.م. وانتزعها بذلك من البونيين وقد دارت هذه الأحداث أمام أنظار روما التي تريد من وراء ذلك إضعاف القرطاجيين والنوميديين معا. وهكذا خضعت ش.ج. جرجيس إلى الحكم النوميدي منذ ما يزيد عن القرن وعلى اثره قرّرت روما، خاصّة وبعد انتهاء الحروب الأهليّة بها وتثبيت الامبراطور أغسطس في الحكم سنة 27 ق.م، ضمّ الأراضي التي كانت تابعة للقرطاجيين والنّوميديين من بعدهم والتي أصبحت من الأملاك العامّة = Ager Publicus فقسّمتها إلى مقاطعات من بينها مقاطعة البروقنصليّة La Proconsulaire التي أصبحت تنتمي إليها ش.ج. جرجيس.

شبه جزيرة جرجيس خلال الفترة الرّومانيّة :

لم تتمكّن روما من تثبيت سلطتها بمنطقة الجنوب الشرقي التّونسي إلاّ عقب انتصارها النّهائي على القائد النوميدي تاكفاريناس الذي قاد قبائل المزالمة والكيينيتي Les Musulames et les Cinithiens في حربهم ضدّ الجنود الرّومان بين 17 و23 ب م. وقد دارت هذه الحرب بالوسط وبالجنوب

الشرقي التونسي. إثر هزيمة تاكفاريناس شرع المستوطنون الرومان في الإستقرار بالجهة وقد أعدّت لهم روما شبكة هامّة من الطّرقات تربط المناطق الصحروايّة بالسّواحل الشرقيّة.

وقد حافظت زيطا في العهد الروماني على اشعاعها في كامل منطقة ش.ج.جرجيس وتمكّنت من الحصول على رتبة بلديّة Municipe التي تخوّل لها تكوين مجلس بلدي يدير الشّؤون اليوميّة للمتساكنين، كما تمكّن علماء الآثار من إبراز معالمها الرّاجعة للفترة الرّومانيّة وذلك إثر الحفريات التي قام بها كلّ من ريناك وبابلون S. Reinach et E. Babelon سنة 1884 وقد توصّلا إلى اكتشاف السّاحة العموميّة الفوروم Le Forum وهي المركز الحيوي في كلّ مدينة هامّة تحيط بها عادة مباني عموميّة تهتمّ بالشّؤون القضائيّة والسيّاسيّة والدينيّة للمواطنين. وبالإعتماد على ما كتبه هذان المؤرخان فإنّ ساحة زيطا مستطيلة الشكل ذات أرضيّة مبلّطة تحيط بها أروقة من ثلاث جهات كما عثرا أيضا على 21 نقيشة باللّغة اللاّتينيّة وعلى تمثال للإمبراطور كلود (41 . 54 ب م) وعلى خمس تماثيل لأشخاص من وجهاء المدينة.

وبفضل إشعاعها خلال الفترة الرومانيّة نجد اسم زيطا في مصادر جغرافيّة عديدة، فقد تحدّث الجغرافي بطولما ووس Ptolémée (النصف الأول من القرن II ب. م) عن رأس زيطا Cap Zeitha الذي يطابق رأس مرمور حاليّا، كما وردت في مسلك أنطونان Itinéraire d'Antonin (أواخر القرن III ميلادي) تحت إسم Ponte Zitha municipium وفي لوحة بوتنجير (النصف الأول من القرن III ميلادي) سمّيت Ziza municipium وقد ازدهرت زيطا في القرنين الأوّل والثاني ميلادي واشتهرت خاصّة بانتاج وترويج الخمور والزّيوت ويظهر هذا النّشاط من خلال آثار معمل الفخار الموجود جنوب المدينة كما يشاهد الزائر لهنشير زيان بقايا الجرار والدّنان التي تغطّي كامل الأرض الأثريّة للهنشير.

وفي الفترة الرّومانيّة تخبرنا النقائش أنّ زيطا حكمها مجلس بلديّ من أثرياء المدينة كما نجح البعض من مواطنيها في الوصول إلى أعلى المناصب الإداريّة والعسكريّة في الإمبراطوريّة.

ولكن آثار الرّومان نجدها كذلك في مواقع أخرى بشبه جزيرة جرجيس سنذكرها من الشّمال إلى الجنوب.

- **شمّاخ :** تقع قرية شماخ على طريق 117 .M.C الرّابط جرجيس بجزيرة جربة على مسافة 13 كلم شمال مدينة جرجيس وقد إندثرت آثارها بسبب التوسّع العمراني للقرية الحديثة التي شيدت على انقاض مبانئ المدينة العتيقة وفي سنة 1909 عثر الضباط الفرنسيون عند تعبيدهم الطّريق الرابط شماخ بالقنطرة الرومانيّة على نقيشة لاتينيّة تخبرنا أن والي المقاطعة البروقنصليّة لسنة 113 ميلادي أمر ببناء كابيتول Capitole بشمّاخ. ولا تزال آثار المباني العتيقة الفخمة ملقاة على حافة الطّريق وأمام بعض المنازل الخاصّة وأهمّ اكتشاف أثري في شمّاخ وقع حديثا في نوفمبر 1988 وتمثّل في أثاث جنائزي عثر عليه في مقبرة قديمة تتكوّن من 43 قطعة على حالة حسنة محفوظة حاليا في متحف جرجيس (أنظر اللوحة عدد 179 cb بالملحق).

- **هنشير الكلخ :** يوجد هـ. الكلخ شمال مدينة جرجيس يحتوي على معلم أثري هامّ يتكوّن من بنايتين الأولى تتمثّل في غرفة متوسّطة الحجم تحتوي جدرانها من الدّاخل على عدد من الكواة Des niches مستطيلة الشّكل وغير نافذة. كان هذا النّوع من المبانيء يستعمل قديما كملجأ للحمام Un Pigeonnier أو Columbarium باللغة اللاّتينيّة. حذو هذا المعلم توجد بناية لم يبق من آثارها إلاّ بعض الجدران والأحواض ربّما تكون مزرعة كان يستغلّها أحد الفلاّحين الكبار في الجهة.

- **جرجيس :** عندما استقرّ الفرنسيون بمدينة جرجيس في نهاية القرن 19 شيّدوا مصالح المدينة الأوروبيّة التي أحدثوها على أنقاض معظم الشّواهد التّاريخيّة لجرجيس القديمة. من بين هذه المصالح نذكر الثكنة العسكريّة والكنيسة الكاتوليكية (مقرّ المتحف الحالي) ومكتب الشّؤون الأهليّة Bureau des Affaires Indigènes وقد قام الضبّاط الفرنسيون في سنوات 1887 - 1905 - 1911 بحفريّات عثروا خلالها على مقابر ترجع إلى الفترة الرّومانيّة وعلى أعمدة وتيجان أعمدة والتي تشهد على وجود بنايات ضخمة اندثرت كلّها.

وفي منطقة سيدي بوتفاحة جنوب جرجيس عثر العقيد Du breuil على ميناء جرجيس الذي استعمله الرّومان في تصدير الزيوت حسب اعتقاده وفي منطقة حمادي عُثر عن طريق الصّدفة في سبتمبر 1935 على جرّة تحتوي على 1253 قطعة نقديّة من البرنز مؤرخة في القرن الثالث ميلادي وجزء من النّقود محفوظ بمتحف جرجيس.

– **النّاعورة :** توجد جنوب جرجيس على حافة بحر علوان، ورد ذكرها في لوحة بوتنجير تحت إسم Putea Pallene، من آثارها مجموعة من الأحواض كانت تستعمل في تمليح السّمك ومنتوجات البحر وكذلك بقايا هامّة من الدّنان والجرار.

–**برج البيان :** يوجد برج البيان جنوب مدينة جرجيس وشيّد وسط الممرّ البحري الذي يربط البحيرة بالبحر، ورد في كتاب الرّحالة والجغرافيين الإغريق والرّومان تحت إسم زوخاريس "Zeucharis" (Le stadiasme de la grande mer) الصّادر في أواخر القرن الثاني ميلادي أو برايزيديوم Praesidium (حسب لوحة بوتنجير) والغرض من تشييده هو مراقبة البحيرة وخاصّة الطرق السّاحليّة والبحريّة التي تراقب تجارة الملح مثلما تخبرنا به المصادر القديمة والوسيطية. وجنوب البحيرة توجد مدينة المداينة (أوزوخيس) والتي اشتهرت حسب الجغرافي سترابون Strabon بمصانع الملح واستخراج الصبغ من صدف الأرجوان Le Murex، لا تزال آثارها ظاهرة إلى الآن.

إنّ الموقع الجغرافي الذي تحتلّه ش.ج.ج. هو الذي ساهم في إشعاعها خلال الفترتين البونيّة والرومانيّة لأنّها كانت توجد على الطّريق القديمة الرّابطة بين قابس (تاكاباس) ولبدة الكبرى بليبيا Lepcis Magna والتي كانت تمرّ ببوغرارة (جيقتي)، زيان (زيطا) القنطرة (ميننكس) البيبان (برايزيديوم) وصبراطة بليبيا. كما مكّنها هذا الموقع من مراقبة القوافل الصحراويّة الآتية من إفريقيا السّوداء وتخبرنا النقائش أن الرّومان كانوا يستعملون هذه الطّرقات بكثافة، ولحماية اقتصادهم قاموا بتركيز أحزمة دفاعيّة وحصونا لحماية سرت الصغرى وذلك بمناطق قصر غيلان وسيدي محمّد بن عيسى ورمادة، ثمّ قامت بطرد السكّان والقبائل التي تهدّد نسق

التجارة الصحراويّة، كما شجّع الأباطرة الجيش على الإستيطان بالتّخوم الصّحراويّة والواحات لخدمة الأرض والدّفاع عنها. غير أنّ هذه السّياسة الأمنيّة والدّفاعيّة التي طبّقها الرومان فشلت في هذه الجهات لأنّ القبائل دائمة التّحرّك وتمكّنت من إقامة الأحلاف بينها وقاومت الرّومان ونجحت في تقليص رقعة الأرض الخاضعة للسلطة الرّومانيّة خاصّة في المناطق التي تمرّ بها طرق القوافل الصحراويّة مما أدّى إلى ركود المبادلات التّجاريّة بين الصحراء والموانى الساحليّة. إلى جانب هذه التطوّرات نضيف الإنقسامات التي عرفتها الإمبراطوريّة الرومانيّة والحروب التي أصبحت تواجهها في كامل المقاطعات لأنّ سياسة القبضة الحديديّة التي اتبعتها فشلت. أمام هذا الوضع لم يجد الوندال الذين نزلوا بطرابلس سنة 429 صعوبة في السيطرة على منطقة الجنوب الشّرقي التّونسي.

شبه جزيرة جرجيس خلال الفترتين الونداليّة والبيزنطيّة :

خلال الفترة الونداليّة عرفت المدن الساحليّة ركودا اقتصاديّا. كما لم نلاحظ وجود آثار ترجع إلى هذه الفترة سوى بعض النقود المتداولة في جهة قابس. ونتيجة إختلال النّظام الأمني والإقتصادي بدأ نظام الوندال يضعف وعندما حلّت قوّات جوستينيان سنة 533 بإفريقيا الشماليّة انهارت دولتهم وحلّ محلّهم البيزنطيون.

الفترة البيزنطيّة :

لم يتمكّن البيزنطيون في حقيقة الأمر من السيطرة إلاّ على جزء من شمال البلاد التونسيّة وبعض مناطق الساحل الشرقي التونسي بما في ذلك ش.ج. جرجيس. وقد ذكر المؤرخ شارل ديهل Charles Diehl من أنّه : "ابتداء من قابس وحتّى بلاد القوريني La Cyrénaïque فإن الوجود البيزنطي اقتصر على امتلاك الطّريق الإستراتيجيّة المحاذية للسواحل وعن نفوذ صوري لدى القبائل الدّاخليّة". وقد ورد اسم جرجيس Gergis في كتاب المؤرخ البيزنطي بروكوب Procope (القرن 6 ميلادي) وعن آثار الفترة المسيحيّة والبيزنطيّة التي سبقت الفتوحات العربيّة الإسلاميّة لم يتمكّن علماء الآثار من إبراز إلاّ البعض منها وقد عثر ميرلان Merlin على بقايا الكنيسة المسيحيّة بهنشير زيان وخلال عمليّة المسح الأثري التي قمت بها عثرت على عدد من النقود البيزنطيّة بالناعورة وشماخ وزيان وعلى نقيشة باللغة الإغريقيّة بالمداينة جنوب شرق بحيرة البيبان وتتعلّق بمعلومات عن الطّقوس الدّينيّة المسيحيّة خلال الفترة البيزنطيّة.

بفضل موقعها الجغرافي تعاقبت على شبه جزيرة جرجيس حضارات عديدة من فترة ما قبل التّاريخ إلى الآن.

وإن تمكّنا بالإعتماده على المصادر الأدبيّة أو الأثريّة من إثبات وجود فترة ما قبل التاريخ والفترة البونية القرطاجيّة والرومانيّة والبيزنطيّة فإنّ فترات أخرى لا تزال غير معروفة كالوجود اللوبي النوميدي مثلا (1).

كما لاحظنا أنّ سكّان هذه المنطقة كانوا يتعاطون نفس الأنشطة الإقتصاديّة منذ القديم إلى يومنا هذا والمعتمدة بالأساس على استغلال منتوجات البحر (سمك – اسفنج – ملح ...) وعلى بعض الأنشطة الزّراعيّة كغراسة الزيتون، أو التّجارية كترويج الزيوت ... إلى جانب هذه الأنشطة قام سكّان شبه جزيرة جرجيس في القديم بتسويق البضائع التي تأتيهم من الصحراء عن طريق القوافل الصحراويّة ويطابق هذا النّشاط التّجاري المكثّف اسم الأمبوريا Emporia الذي أعطاه المؤرخون في القديم لهذه المنطقة والتي تعني "مناطق الأسواق" أو "المصارف التّجاريّة".

علي درين، باحث
المعهد الوطني للتّراث

الهــوامــــــش

(1) حول احتلال النوميديين لمنطقة الأمبوريا. لنا مصدر تاريخي للمؤرّخ بوليب لكن لسيت لنا وثائق أثريّة.

الفندري (منير) : سبع رسائل مخطوطة لهاينريش بارث عن رحلة إلى تونس 1845 - 1846 تحقيق وتعريب منير الفندري - تونس المؤسّسة الوطنيّة للتّرجمة والتّحقيق والدّراسات بيت الحكمة 1987.

-تاريخ الحضارات العام، إشراف موريس كروازيت في 7 أجزاء.

أنظر ج 1 - الشرق واليونان القديمة.

ج 2 - روما وامبراطوريتها.

منشورات عويدات - بيروت باريس - 1986.

- تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية 15 م.

روبار برنشفيك نقله إلى العربيّة حمادي السّاحلي.

بيروت دار الغرب الإسلامي 1988 .

I) Sources littéraires :

- Pline l'Ancien; V, texte établis, traduit, commenté par J. Desanges, Paris 1980.
- Polybe, Histoires, Livre. I, traduction P. Pédech, Paris 1969.

II) Ouvrages :

- Benabou (Marcel) : La résistance africaine à la romanisation. Paris 1976.
- Camps-Fabrer (Henriette): L'olivier et l'huile dans l'Afrique romaine. Alger 1953.
- Diehl (Charles) : L'Afrique byzantine, histoire de la domination byzantine en Afrique, (538 - 709) Paris 1896.
- Gsell (S): Histoire Ancienne de l'Afrique du Nord T. 2 Paris 1921.
- Guérin (Victor): Voyage archéologique dans la régence de Tunis, T1 et 2 - Paris 1962
- Heurgon (Jacques): Rome et la Méditerranée occidentale jusqu'aux guerres Puniques Paris 1969.
- M'zabi (Hassouna): La Tunisie du Sud-Est géographie d'une région fragile, marginale et dépendante, Université de Tunis I, Faculté des Sciences Humaines et Sociales, Série géographie, Vol XXX. Tunis 1993.
- Pellissier : Description de la régence de Tunis, Paris 1853 - p. 303.
- Servonnet(J), Laffitte (F), le golfe de Gabès en 1888, Paris 1888.

- Tissot (Ch): Géographie comparée de la province romaine d'Afrique, T I Paris 1884. T II, Paris 1888.

III Articles :

- Bouchard : Fouilles de Zian BAC. 1905 p. CCIX - CCX.
- Constans (L.A); Rapport sur une mission archéologique à Bou Ghrara Gigthis dans les Nouvelles Archives des Missions (n.s.) XXI fax. 14. 1916.
-Drine (A), Note sur le site de Zitha (Hr. Zian) Zarzis dans Reppal VI - 1991. P. 17 - 30.
- Rebillet : Le lac el Biban et Mdeina, BAC. 1892. P. 126 - 129.
- Reinach (S). Babelon (E) : Recherches archéologiques en Tunisie. fouilles exécutées à Gightis et à Zian dans BAC. 1886. p. 54 - 65.
- Saladin : Sur les fouilles de Chammakh BAC. 1908- p. CLVII - CLVIII.
-Toutain (J): Notes et documents sur les voies stratégiques et sur l'occupation militaire du Sud Tunisien. B.A.C. 1903. p. 287 - 342.

مجتمع أقصى الجنوب التّونسي وعلاقته بالبايليك في القرن الثّامن عشر من خلال وثائق الأرشيف الوطني.

د. محمد الهادي الشّريف
أستاذ محاضر بكليّة العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة بتونس.

اخترنا الحديث عن منطقة أقصى الجنوب (طرفها الشرقي بالأخصّ) في القرن الثامن عشر لما كانت تكتسيه من أهميّة من النّاحية التّاريخيّة والأنتروبولوجيّة، فهي منطقة قبائل مجتمعها متركّب من أجزاء متباينة متحالفة أو متنافسة، ذلك المجتمع الذي أطلق عليه نعت "الإنقسامي" Ségmentaire والذي أثار الكثير من الجدل حول نوعيّته وديناميكيّته. وهي في نفس الوقت منطقة نائيّة بالنّسبة للمركز أو لمراكز السّلطة التي يضعف نفوذها إلى درجة الإضمحلال في الأطراف وفي المناطق الجبليّة وفق النمط الذي رسمه ابن خلدون في القرن الرّابع عشر ونموذج "الدّولة الإنقساميّة" التي رسم ملامحها الإنتروبولجيّون. فغايتنا من استقراء أوضاع المنطقة من خلال الوثائق الأرشيفيّة "غير المقصودة" هي الرّجوع إلى المعطيات الثّابتة "الحقيقيّة" ومقابلتها بالنّظريات العامّة التي تزداد فائدتها كلّما ارتبطت بالواقع أو انطلقت منه.

أمّا القرن الثّامن عشر الذي نجعله اطارا لبحثنا فوثائقه تقلّ بالمقارنة برصيد أرشيف القرن اللاّحق ولكن ميزته الأساسيّة هو أنّه فترة استقرار نسبي -إجتماعي وسيّاسي- قبل اضطرابات القرن التّاسع عشر وتقلّباته النّاتجة عن التّسرّب الأوروبي إلى بلدان المغرب العربي، فالصّورة المرسومة لأوضاع القرن 18 هي أصدق وأوضح ممّا ستكون عليه حقّا.

أمّا المصادر المستخدمة لدراسة الموضوع فهي أساسا الوثائق الجبائيّة المدوّنة في سجّلات من الحجم الكبير محفوظة بمصلحة الأرشيف الوطني بالقصبة. وتتضمّن هذه الدّفاتر مداخيل المقاطعات ومصاريفها كلّ واحدة على حدة ومن جملتها منطقة "الأعراض" التي تتبّعها جهة أقصى الجنوب المسمّاة أحيانا " بقسم جربة" رغم أنّها تشير إلى المناطق القارية جنوب الإيالة.

تذكر الوثائق الجبائيّة المجموعات المطالبة بدفع الأداء (مطالبها) من مدن وقرى وعروش وتستعرض ما على كلّ مجموعة من أداءات عاديّة واستثنائيّة (مثل الدّوايا والخطايا) ثمّ المصاريف التي تدفع محليّا من مدخول هذه الأداءات (مثل مرتّبات المشايخ أو "عوائدهم" ومثل "راتب" أفراد الحاميات العسكريّة) كما أنّها تسجّل الإعفاءات من الاداء ("الطّايح" و "السراح")، فتطلّعنا على فئة المحظوظين الذين يعتمد عليهم البايليك في تلك المناطق النّائية. وأخيرا تخبرنا الوثائق عمّا أمكن جمعه من مال أومن حيوان من المنطقة وعمّا وقع التّخلّي عنه لفائدة المجموعات أو الأفراد ("الطّايح") وعن المعاليم التي أرجي تقاضيها لسنة لاحقة ("المؤخّر").

إذن تفيدنا الوثائق الجبائيّة بمعرفة المجموعات المتساكنة -في القرن 18 - بالمنطقة وتوفّر لنا بعض المعلومات عن المجتمع المحلّي أو عن البعض من شرائحه كما تمكّننا من تقييم مدى ارتباط المجموعات المحليّة بالبايليك ومدى استقلالها عنه. إلاّ أنّ المعلومات المستقاة من هذا المصدر وإن كانت ثابتة موضوعيّة (اذ هي "غير مقصودة") إلاّ أنّها مقتصرة على البعض من جوانب حياة المنطقة دون غيرها وكذلك جافّة كلّ الجفاف ينقصها "هذيان" المخبرين الموحي بثراء الحياة وبتناقضاتها.

ما هي خاصيّات المنطقة المستوحاة من استقراء الوثائق الجبائيّة ؟ هيّ أوّلا منطقة صعبة المنال تخضع إلى أوامر "قايد" يقطن بتونس إذ هو عادة من أهمّ رجال البلاط ويتوجّه إلى المنطقة في فصل الشّتاء بعد جني التّمور بها مصحوبا بمحلّة ("محلّة الأعراض") ومقيما هناك مدّة شهرين أو ثلاثة حتى يستوفي خلاص ما على الجهة من ضرائب أو ما يمكن استخلاصه. وعادة لا يتجاوز القايد واحات شمالي الأعراض ولا ينتقل بمحلّته إلى الجهة الجنوبيّة ولا الجبليّة إلاّ بصفة استثنائيّة ووقتيّة إذا ما دعت حاجة ماسّة لذلك. ولكن دفاتر الجباية تتضمّن رغم ذلك شيئا من المعلومات عن الجهة الجنوبيّة : الأعراض الجنوبيّة أو " قسم جربة" ومن أهمّ تلك المعلومات ما تخبرنا به عن المجموعات المستوطنة الجهة سواء كانت قبائل (شبه رحّل في معظمها) أو مجموعات فلاّحين مستقرّين.

أمّا التّركيبة البشريّة للأعراض الجنوبي (وهو ما يعنينا بصفة خاصّة في هذه الدّراسة) فتتميّز بوجود نوعين من السّكان، صنف شبه رحّل وآخر مستقرّ كما تبيّن الدّفاتر الجبائيّة الأهميّة لكلّ مجموعة قبليّة انطلاقا ممّا هو موظّف عليها من أداء.

القبائل أو المجموعات القبليّة :

1- أشباه الرّحل :

أ – **ورغمّة الغرب** : تطلق هذه التّسميّة على مجموعات وعروش الودارنة و"توابعهم". ينتمي إلى ورغمّة الغرب أولاد عبد الحميد والزرقان وأولاد شهيدة والدّغاغرة وأولاد دباب والعواديد والمقابلة (1). تعتبر هذه العروش الأكثر أهميّة مقارنة بتبعيّة قبائل لعراض حيث تقوم بدفع 300 5 ريال من جملة 000 20 ريال مستخلصة من جنوب لعراض مع الإشارة إلى الإعفاءات التي يتميّز بها المحظوظين من السكّان أو "المحارير" كما تسمّيهم الدّفاتر.

ب – **غبنتن** : تصل نسبة الضرائب بالنّسبة لهذه القبيلة إلى حوالي 1380 ريال.

ج – **المهبّل** : (هذه المجموعة القبليّة هي سليلة سيدي مخلوف وتقطن المنطقة التي تسمّى باسمه) وتدفع حوالي 1120 ريال كضرائب للباليك وما يمكن استخلاصه هو صغر حجم هذه القبيلة مقارنة بتلك والتي سبقتها انطلاقا من نسبة الأداءات المنخفضة.

د – **عكّارة** : تنقسم قبيلة عكّارة إلى ثلاثة أقسام :

* عكّارة الشّرق : المجموعة التي تقطن بمنطقة جرجيس وتقوم بدفع 2400 من الرّيالات.

* المؤانسة (الذين وقع إحصاؤهم على حده) ويدفعون 340 ريال .

* عكّارة السّاحل : استقرّ هذا الفريق من عكّارة بالسّاحل ويدفع 1870 ريال إلاّ أنّه يخضع إلى محلّة السّاحل وليس إلى محلّة لعراض.

هـ – **فرق أخرى** : تشير المصادر المعتمدة إلى أسماء مجموعات قبليّة أخرى أهمّها التّوازين ومزطورة والعبابسة (2) وقد وردت هذه الأسماء ضمن قائمة المحظوظين أي الذين وقع إعفاؤهم من دفع الضرائب.

2- المستقرّون في الجبل و البليدات(3) :

تلتقي المجموعات المستقرّة في تمركزها بالجبال والمرتفعات، وتتوزّع الضّرائب المدفوعة من قبل هذه القبائل كالآتي :

* غمراسن : 1465 ريال، شنني الجبل قرابة 1000 ريال، الدّويرات 1350 ريال، الخمس منازل بالجبل الأبيض 1750 ريال، قرماسة 100 ريال، الجبل الأبيض 280 ريال.

تضاف إلى هذه الضرائب (المجبى) لزمات مرسى جرجيس التي تقدّر ب 300 ريال بينما تخبرنا الدّفاتر بقيمة لزمة مرسى جزيرة جربة التي تصل إلى 800 ريال.

- المجتمع :

رغم العلاقة بالبايليك (سنتعرّض لذلك لاحقا) فإنّ المجموعات القبليّة قد شكّلت تجمّعات شبه مغلقة وهي تتركّب من فئات اجتماعيّة اختلفت في تراتبها الإجتماعي حسب نسبة الجباية التي تؤدّيها وقد انقسمت كالتّالي :

المشايخ (4) : هذه الفئة تكتسي أهميّة كبرى، فهي الرّابطة بين المخزن والأهالي و تساعد خاصّة على جمع الضّرائب وفي نفس الوقت مستفيدة نظرا لحصولها على نسبة من الجباية.

* الرّجال الكبار : هي فئة الأعيان التي يتشكّل منها عادة "الميعاد القبلي".

* العدول : وهي الفئة الأكثر تعليما في المجتمع، وحسب قائمة 1875 نجد 10 عدول في منطقة عكّارة و10 في منطقة التّوازن و10 عند الودارنة.

* التباع : هذه الفئة من السكّان تخضع لحماية أسيادهم المرابطين (فئة دينيّة أو قبيلة زاويّة) وقد أصبحت هذه الفئة من المعفيين من الضّرائب تقديرا لأسيادهم.

* العبيد : تعدّ منطقة الأعراض الجنوبي أكثر من 200 من العبيد (أو الشوّاشين) وهي فئة من الخدم، وتقوم " المحارير" بدفع حقّ هؤلاء الخدم للجباية. ورغم انقسام المجموعات القبليّة إلى بدويّة محاربة وأخرى مستقرّة مثل الجباليّة فإنّ وثائقنا لاتتحدّث عن ظاهرة التّبعيّة التي كانت تفرضها القبائل المحاربة على القبائل المستقرّة (5).

- **الإقتصاد :**

باعتبار أنّ الإقتصاد السّائد في أقصى الجنوب التّونسي في فترة القرن الثّامن عشر هو اقتصاد بالأساس رعوي يقوم على تربيّة الماشيّة فإنّ الباي عادة ما يفرض على المنطقة تسليم كميّة من الأغنام ومن الماعز إلى المحلّة بسعر منخفض. إلاّ أنّ الدّارس يلاحظ بعض النّشاطات الإقتصاديّة الأخرى بالمنطقة، فجهة جرجيس تميّزت بالنّشاطات الإقتصاديّة البحريّة (صيد الأسماك - صيد الإسفنج) من ناحيّة وبالإتّجار في مادّة الملح بالإشتراك مع زوارة من ناحيّة ثانيّة. إلاّ أنّ هذه المادّة الهامّة (الملح) قد فرضت تدخّل البالِيك لاحتكارها وبيعها للأوروبيين، كما أنّ نشاطات حرفيّة قد ظهرت لدى السكّان الجباليّة وهي تتمثّل أساسا في صناعة الوزرة (6) كما أنّ تجارة العبيد قد مثّلت أحد الموارد الإقتصاديّة الهامّة خاصّة وأن منطقة الجنوب التّونسي كانت منطقة ربط بين افريقيا السّوداء وشمال الإيالة عبر طرابلس.

- **علاقات المنطقة مع البايليك من خلال الأداءات الموظفة :**

بالرّغم من عدم وجود حدود مسطّرة وواضحة بين كلّ من تونس وطرابلس فإنّ الدّفاتر الجبائيّة في الفترة المدروسة تحدّد القبائل التي ترجع حياتها بالنّظر إلى الإيالة التونسيّة والمتمثّلة في كلّ من زوارة والقبائل القاطنة بجبل نفوسة(7) بينما تمتدّ السّلطة الجبائيّة لطرابلس على قبيلتي الصّيعان والنوايل ومن أهمّ الشّروط لجمع الأداءات وتجسيم السّلطة في تلك الفترة وجود قوّة عسكريّة.

أ - **المحلّة** : هي فرقة عسكريّة متنقّلة تقوم بجمع الضّرائب وردع القبائل المتمرّدة. وبالنسبة لمحلّة الأعراض تقوم بزيارة سنويّة لهذه الجهة فتجوب خاصّة منطقة الواحات في شمال الأعراض من أجل ردع القبائل المتواجدة هناك وخاصّة قبيلة بني زيد إلاّ أنّه قلّما تقتحم المحلّة منطقة أقصى الجنوب وبالتّحديد فضاءات ورغمّة وقرى وقصور الجباليّة وهو ما ينبيء بمحدوديّة تأثير البايليك في هذه المنطقة.

ب - **الحصون** : يتمثّل التّواجد العسكري بأراضي أقصى الجنوب في وجود ثلاث حصون عسكريّة وهي حصن جرجيس وحصن البيبان بالإضافة إلى حصن غمراسن. وتتمركز في كلّ هذه الحصون حاميّة (أو نوبة) تتركّب من 20 إلى 30

جنديّ زواوي، ورغم أنّه من الصّعب الإعتقاد بأنّ هذا العدد كاف لفرض إرادة البايليك ونفوذه في المنطقة، فمن الضروري الإشارة إلى أنّ حصني جرجيس والبيبان قد لعبا أدوارا هامّة، فقد كانت وظيفة الأوّل حراسة مرسى جرجيس أمّا الثّاني (أي حصن البيبان) فكانت مهامّه تتمثّل في حرسة أماكن أقتناء الملح قرب جرجيس وزوارة.

ج – **المزارقيّة** : هي فرقة متكوّنة من فرسان القبائل سميّت بهذا الإسم نسبة إلى سلاح المزارق أي الرّمح الذي تحمله وقد أشارت دفاترنا إلى وجود 140 فارس سنة 1712 ينتمون إلى قبيلة ورغمّة، إلاّ أنّ السّؤال بقي مطروحا : هل أن هؤلاء الفرسان يعملون بالمنطقة لمساعدة أعوان الدّولة على جمع الضّرائب وفرض الأمن أم أنّ الدّولة تستغلّهم في شمال الأعراض حيث جمع الضرائب فعلي وحقيقي؟

– **العلاقات الجبائيّة** :

هي علاقات فعليّة ، فجميع المعلومات المذكورة والمتمثّلة في كلّ من ورغمّة وعكّارة والجباليّة موجودة في دفاتر البايليك وكذلك الأداءات الموظفة عليها.

من أهمّ الأداءات "المجبى" وهو عبارة على قسط يدفعه كلّ رب عائلة من المقدار المالي الموظّف على المجموعة، ومن ناحيّة مبدئيّة فإنّ ضريبة "المجبى" تدفع على الذكور البالغين وعلى ما يملكونه من أرض أو حيوان وتتراوح هذه الضّريبة من 4 إلى15 ريال إلاّ أنّه في غالب الأحوال وفي ظلّ إحصاء للرّقابة وللأملاك فإنّ المجبى تنقلب إلى مقدار مالي جملي تدفعه المجموعة : قطعة أو بردعة. فقد ورد في الدّفاتر الجبائيّة أن مقدار المجبى بالنّسبة لورغمّة الغرب مثلا قد قدّر ب 3400 ريال من جملة 5300 ريال المطالبة بها في قرابة الثلثين 2/3 من المقدار الكلّي.

من المطالب التي تذكرها الدّفاتر وجود أداءات إضافيّة مثل " العيديّة" ومعاليم ما يتقضاه القائد وخلاص الأداءات والمشائخ والرّجال الكبار فالمنطقة تتميّز بخاصيّة وجود "عادات"(8) تقدّم للمشائخ و"للرّجال الكبار" من محصول الضرائب وهي تبلغ خمس ماهو موظف على المجموعة أو أكثر (بالنّسبة لورغمّة الغرب 1200 ريال من جملة 5300).

يوجد نوع آخر من الأداءات غير تلك الأداءات العاديّة (من مجبى ومطالب) بل هي نوعيّة خاصّة بالمحظوظين الذين تعتمد عليهم الدّولة لتجسيد نفوذها، ففي معظم جهات الأيالة نجد "حق خيل العادة" بينما في منطقة الجنوب هناك "حق خدم العادة" أي قرابة 40 ريال بالنّسبة للخادم (9) لكن كانت الرّعيّة هي التي تتحمّل دفع هذا المقدار عوضا عن المحظوظين. وبجانب الأداءات العاديّة تؤدّي الرّعيّة معلوم " الدّوايا" (على الجرائم المقترفة في المنطقة) والخطايا الموظّفة امّا على الأفراد أو الجماعات، فقد شهدت سنة 1771 م (1186هـ) فرض خطيّة مقدارها 3100 ريال على قبيلة عكّارة "لفسادهم" ؟ بينما حدّد مقدار الديّة الواحدة ب500 دينار أو 312 ريال، فقد أحصت وثائقنا عددا معيّنا من الدّويا تدفع حقنا للدماء إلاّ أنّ المستفيد من هذه الدوايا هو الدّولة في كلّ جهات البلاد. لكن ما يلاحظ هو أنّ قلّة عدد الدّوايا الموظفة من قبل الدّولة على الجهة تبقى مسألة خاصّة بالعائلات أو بالأحرى بالمجموعات، فالدّولة عادة ما تبقى على غير علم بما يقترف من قتل في جهة الجنوب أو أنّها تبقى عاجزة في بعض الأحيان على فرض الديّة، إضافة إلى ذلك فإنّ المركز لا يتدخّل في المنطقة في قضايا الغزوات (10) الجماعيّة ولكن تعاقب قضايا اللّصوصيّة والجرائم الفرديّة.

علاقة البايليك بالقبائل أثناء الإضطرابات السّياسيّة :

لا يمكن لأيّ باحث أن يغضّ الطرف عن الظرفيّة السيّاسيّة التي تخضع لها مختلف العلاقات العسكريّة والجبائيّة والقضائيّة، فوضعيّة السلّم تطبع هذه العلاقات بطابعها أمّا فترات الإضطربات فعادة ما تؤدّي إلى قلّة الجباية أو انقطاعها، ففي فترة الحرب بين بايات تونس ودايات الجزائر وهي سنوات 1756 - 1757 - 1758 فإنّ الضرائب لم تجمع وقد طولب بها أهالي الأعراض سنة 1759 دفعة واحدة لمدّة ثلاث سنوات.

وفي الفترات التي تقوى فيها السّلطة المركزيّة وتتدعّم سلطة الباي فإنّ تدخل الدّولة يشمل شؤون المجموعة وقد لاحظنا ذلك خاصّة أثناء فترة حكم حمودة باشا فمثلا في سنة 1787 وقع إجبار شيخ غمراسن على إرجاع ما ابتزّه من الرعيّة زيادة على المعلوم المطالب (200 دينارا أو 1225 ريال) كخطيّة. وبصفة عامّة وانطلاقا من أواخر القرن 18 أخذت سلطة البايليك تتمتّن بأقصى الجنوب لا سيما

بعد الحملة على طرابلس لطرد ضابط تركي افتكّ الحكم بها سنة 1793 وبعد إرجاع السلطة للبايات من "آل قرمانلي" سنة 1794 وفي هذه المناسبة وقع استرجاع جزيرة جربة وطرابلس. كما تمكّن باي تونس بعد هذه الإضطرابات بمنطقة أقصى الجنوب من أبعاد القبائل الطرابلسيّة مثل الصيعان والنوايل (11) عن أهالي أقصى الجنوب وبذلك توفّرت عوامل بداية استقرار لبعض الفرق مثل "عكّارة" وتمكّن هؤلاء من غراسة أشجار الزّيتون بمنطقة جرجيس التي أصبحت تسمّى "دخلة عكّارة".

الخلاصـــــــــة :

إنّ النّتائج التي يمكن استخلاصها من هذا البحث هيّ أنّ مجتمع أقصى الجنوب أثناء الفترة المدروسة هو مجتمع قبلي يخضع لقوانين عرفيّة بالإضافة إلى كونه شبه مستقلّ ومتفاوت القوّة وقد أفرز وجود مجتمع أقصى الجنوب في منطقة صحراويّة حدوديّة مضطربة - أقوياء وضعفاء- سواء على مستوى المجتمعات أو الأفراد وقد استغلّت الدّولة الفوارق الدّاخليّة لتتحالف إلى حدّ ما مع الأقوياء ولتفرض نفوذها.

من النّاحيّة النّظريّة لا يمكن الإقرار بانطباق المقولات النظريّة للمدرسة الإنقساميّة تمام الإنطباق، إلاّ أنّه لا يمكن الإقرار بأن مجتمع أقصى الجنوب قد خضع للنّفوذ المخزني ولو جزئيّا وبالتّالي لا يمكن اعتباره جزءا من بلاد السّيبة.

د.محمد الهادي الشّريف
تونس فيفري 1995

الهوامش

(1) وردت أسماء العروش المكوّنة لورغمّة الغرب ضمن قائمات المحارير (أي المحظوظين الذين لا يدفعون الجباية).

(2) لا تشير الدّفاتر إلى قبيلتي الجليدات والحوايا وهي من القبائل شبه الرّحل، وقد يعزى ذلك إلى الطّبيعة الدينيّة الرّباطيّة بالنّسبة للأولى وإلى استقرار الثّانيّة في قمّة جبل الحوايا (يسمّى بني خداش حاليًا).

(3) تصنّف القبائل المستقرّة ضمن المجموعات البربريّة.

(4) تنقسم إلى صنفين شيخ الشرطية وشيخ العرف.

(5) تشير بعض العقود المبرمة خاصّة في منطقة الودارنة بين القبائل البدويّة المحاربة والجبالية المستقرّين إلى إتاوة تقدّمها المجموعة الثانيّة إلى الأولى نظير الحماية التي تقدّمها الأولى إلى الثانيّة.

(6) الوزرة : غطاء صوفي مازالت صناعته قائمة إلى حدّ الآن بأغلب مناطق أقصى الجنوب التّونسي.

(7) البعض منها يخضع إلى حماية قبائل محاربة تونسيّة.

(8) هبات تقدّم للأعيان المحلّيين المتعاملين مع البايليك في مناسبات محدّدة وهي تؤخذ من مجموع ما يتحصّل من الضّرائب ونسبتها المائويّة ترتفع كلّما ازداد دور هؤلاء الأعيان وزنا وخطورة.

(9) تعدّ منطقة الأعراض الجنوبي 207 من العبيد.

(10) تشير رسائل عمال الأعراض إلى الوزير الأكبر إلى أنّ مناطق أقصى الجنوب التّونسي كانت مسرحا للصّراعات والغزوات المستمرّة خاصّة بين قبائل أقصى الجنوب التّونسي والقبائل الطّرابلسيّة : صيعان – نوايل – زوارة الخ...

(11) تتحدّث الرّوايات الشّعبيّة بأقصى الجنوب على تحالف قبائل ورغمة وعكّارة والودارنة لطرد قبائل النوايل والصيعان الطّرابلسيّة.

أحد ملامح الأنشطة الإقتصاديّة بجهة جرجيس :
تطوّر قطاع الصيّد البحري بين 1887 –1929

عبد الرّحمان الونيسي
باحث تاريخي.

مقدّمــــــة :

إنّ دراسة موضوع تطوّر قطاع الصيد البحري بجرجيس أثناء الإحتلال يطرح أمام الباحث مشكلا رئيسيّا وهو مشكل المصادر، ذلك لأن هذه المصادر قد كتبت بالأساس من طرف موظفي الإدارة الفرنسيّة ومن طرف بعض الضبّاط أو الكتّاب الفرنسيين الذين تشبّعوا بفكر ومبادئ القرن التّاسع عشر القائمة على تقديس كلّ ما هو أوروبي وتحقير المجتمعات الأخّرى التي لم تعرف النّهضة الفكريّة أو الثورة الصّناعيّة. ولذلك فقد أتت هذه المصادر عاكسة لهذه النّظرة الأوروسنترية (Eurocentrisme) التي تعتبر أن أوروبا هي مركز العالم وأنّ الفرنسيين قد أتوا للبلاد بمهمّة تحضيريّة من أجل النّهوض بسكّانها. هذه النوعيّة من المصادر لا تذكر عادة إلاّ الإنجازات الإيجابيّة التي قامت بها الإدارة الفرنسيّة وتغضّ الطّرف عن مسائل أخرى هامّة جدّا بالنّسبة للباحث وهي التي تخصّ الحياة الإجتماعيّة للبحّارة ومستوي عيشهم وتأثير دخول الإستعمار للمنطقة على مورد رزقهم. وهي لا تهتمّ أيضا بذكر المشاكل اليوميّة التي يعانيها البحّار سواء في حياته العائليّة أو في حياته المهنيّة. وغضّ الطّرف الذي نجده في هذه المصادر عن هذه المسائل كان متعمّدا لأنّ تناولها سوف يضع مقولتهم التّحضيريّة والتّحديثيّة موضوع سؤال. وسنحاول أن نستكشف من خلال هذه المصادر وخاصّة من خلال الإحصائيّات التي تركتها لنا إدارة الأشغال العموميّة حول النّشاط البحري بالجهة، الوصول إلى حقيقة أنّ الإستعمار قام باستنزاف كلّ الثّروات الموجودة بالمنطقة (البحريّة - السياحيّة- الفلاحية...) لصالحه وأن إدّعاء التّحضير والنّهوض بمستوى عيش الأهالي كان مجانبا للحقيقة إلى حدّ كبير.

ويعتبر الصيد البحري موردا أساسيّا لأهالي جهة جرجيس- إن لم يكن المورد الوحيد في بداية انتصابهم بالمنطقة - وكان هذا النّشاط يسير بشكل متوازن

مع بقيّة الأنشطة الإقتصاديّة القائمة على تحقيق الإكتفاء الذّاتي وتصدير الفوائض إلى الأسواق المجاورة في تونس وليبيا. لكن مع دخول الإستعمار سيقع اختلال داخل هذا التّوازن نظرا لاستحواذ الفرنسيين على أحقيّة استغلال الموارد البحريّة للمنطقة، وهذا الإختلال سوف يتضرّر منه معظم الأهالي وخاصّة الذين يعتمدون في رزقهم على هذا النّشاط . فكيف تمّ استغلال المنتوج البحري بجرجيس خلال الفترة الإستعماريّة الممتدّة بين 1887 - 1929 وماهي أهمّ مراحل هذه الإستغلال ونتائجها على الأهالي ؟

I- صيد الأسماك بجهة جرجيس والبيبان :

الصيد البحري بجهة جرجيس ينقسم إلى نوعين : النّوع الأوّل وهو صيد الأسماك بسواحل جرجيس وخاصّة ببحيرة البيبان، والنوع الثّاني وهو صيد الإسفنج الذي ازدهر خاصّة في العشرينات من هذا القرن. وقد كان هذا الإنتاج موجّها خاصّة إلى العاصمة وإلى الأسواق الأوروبيّة وخاصّة منها السّوق الفرنسيّة.

1) صيد الأسماك بجرجيس :

لم يحظ قطاع صيد الأسماك بجرجيس باهتمام كبير من طرف الصيّادين، في بداية الإحتلال. ولم يزد عدد المراكب التي اهتمّت بصيد الأسماك سنة 1887 عن 6 مراكب (1)، ولكن مع تطوّر الأنشطة الإقتصاديّة بالمنطقة وبداية دخولها اقتصاد السّوق، ازدادت حركيّة هذا القطاع فتضاعف عدد المراكب المختصّة بصيد الأسماك.

وزاد الإنتاج بصفة ملحوظة كما هو مبيّن بالجدول التالي :

تطوّر انتاج الأسماك بجرجيس (1907 - 1929 بالطن)(2)

السنة	1907	1908	1910	1911	1912	1913	1914	1915	1916	1917	1918
الإنتاج	18،56	20،66	22،9	27،43	26	30	38،7	31،3	27،4	87،4	99،9
السنة	**1919**	**1920**	**1921**	**1922**	**1923**	**1924**	**1925**	**1926**	**1927**	**1928**	**1929**
الإنتاج	94،9	-	62،2	90،4	74،7	93،6	109،1	124	276،4	239	213،5

ويبرز هذا الجدول وجود مرحلتين في الإنتاج : أولهما الممتدّة من سنة 1907 - 1916 وتميّزت باستقرار الإنتاج النّاجم عن سيادة اقتصاد الكفاف وقلّة ترويج الأسماك بالأسواق.

مرحلة ثانيّة وتمتدّ من سنة 1917 - 1929 وقد تطور فيها الإنتاج ليبلغ 87،4 طن سنة 1917 و 124 طن سنة 1926، وتفسّر هذه الزيادة باستعمال الصيادين لأصناف أخرى من شباك الصيد، زيادة على الشباك القديمة(3). وانعكس هذا التطور على معدّل الإنتاج السّنوي من الأسماك لكلّ مركب، حيث قفز هذا المعدّل من 1،16 طن سنة 1907 إلى 2،24 طن سنة 1917 (4). كما شهد انتاج المنطقة من الأسماك تطورا كبيرا سنة 1927 ليصل إلى 276،4 طن، وهو ما يمكن تفسيره بارتفاع عدد المراكب المخصّصة لصيد الأسماك بالجهة حيث بلغ عدد هذه المراكب 263 مركبا سنة 1927 في حين أن عددها لم يتجاوز 39 مركبا سنة 1917 (5).

ورغم الحركية الجديدة التي شهدها هذا القطاع (تطور عدد المراكب، وطرق الصيد...) فإنّ الإنتاج بالمنطقة، مقارنة ببقية المناطق الشماليّة خاصّة، ظل ضعيفا ولم يتجاوز في أحسن الحالات 300 طن في السنة، ويرجع ذلك إلى عوامل متعدّدة لعلّ أهمّها :

* عدم تطور مراكب الصيد، حيث أنّ المراكب المتواجدة بالمنطقة سنة 1888 والتي وصفها لنا "لافيت" Laffitte (6) كانت هي نفس المراكب المستعملة سنة 1929. وقد شهدت سعة حمولة هذه المراكب تراجعا من سنة 1904 إلى سنة 1928 .

(7)

السنة	1904	1912	1920	1928
سعة المراكب (البرميل)	2،25	1،82	1،54	1،23

إنّ هذا التّراجع في سعة حمولة المراكب هو الذي يفسّر تراجع معدّل الإنتاج السّنوي لكلّ مركب من 2،62 طن سنة 1918 إلى 1،28 طن سنة 1929 رغم تطور الإنتاج.

* صعوبة تسويق كميّة كبيرة من الأسماك نظرا لمحدوديّة الإستهلاك بالمناطق المجاورة لجرجيس والمبالغ الباهضة التي يتطلّبها تصدير الأسماك إلى تونس أو إلى البلدان الأوروبيّة.

* عدم وجود ميناء كبير بالمنطقة يمكن من إرساء عدد كبير من المراكب والسّفن ذات الحمولة الكبيرة.

* صعوبة الأحوال الجويّة، حيث أنّ اتجاه الرّياح بسواحل البلاد التّونسيّة من غربية شماليّة غربية في الشتاء وشرقية جنوبيّة شرقيّة في الرّبيع، والتي عادة ما تكون قويّة، لا تشجّع بعض الصيادين على الإبحار، خاصّة مع نوعيّة المراكب المستعملة وعدم وجود سفن إغاثة في حالة الطّواريء.

إنّ حيويّة هذا القطاع اتّسمت أيضا : كما تبيّنه الجداول التّاليّة بتطور عدد الصيادين وتحسن عائدات صيد الأسماك بجرجيس :

تطوّر عدد صيادي الأسماك بجرجيس (8)

السنة	1907	1915	1919	1922	1926	1928
عدد الصيّادين	44	131	139	622	867	749

تطوّر عائدات صيد الأسماك بجرجيس (1922 - 1928) (بالفرنك) (9)

السنة العائدات	1922	1923	1924	1925	1926	1927	1928
العائدات الجمليّة	12 300	23 100	86 600	251 700	96 400	866 300	657 300
م. عائدات كلّ مركب	547،8	728،4	814،8	1553،7	1473،6	3293،9	2620،6
م. عائدات البحّار	09،56	145،68	162،96	310،74	294،72	658،78	524،12

وقد صحب هذا التطوّر في القطاع زيادة في معدّل الدّخل السنوي للفرد البحّار، ليصل إلى 659 فرنك في السنة بعد أن كان في حدود 110 فرنك في السنة عام 1922. غير أنّ هذه الزيادة لم تنهض بمستوى معيشة البحّار "العكّاري إلى

الحدّ الذي يتجاوز به عتبة الفقر، و ذلك لغلاء الأسعار وارتفاع مستوى العيش خاصّة بعد الحرب العالميّة الأولى التي شهدت فيها البلاد قفزة كبيرة لأسعار بعض المواد الأساسيّة.

وإن توفّرت لبعض الصيّادين موارد رزق أخرى تكمّل النقص الحاصل في حاجيات البحّار، فإنّ المعتمدين كلّية على هذا الميدان كانت أوضاعهم مزرية إلى حدّ كبير، ونعني بذلك بحّارة بحيرة البيبان منذ أن استولت الشّركات الفرنسيّة عليها.

2- صيد الأسماك ببحيرة البيبان :

أ- الشّركات المستغلّة لهذه البحيرة :

قبل دخول الحماية الفرنسيّة إلى البلاد، كانت بحيرة البيبان مستغلّة من طرف عدد من الصيادين المحليين. وبلغ عدد المراكب التي تصطاد السمك بهذه البحيرة سنة 1888، 20 مركبا (10) ووجد بها أيضا عددا من مصيدات الأسماك على ملك عدد من الأهالي (11) الذين يبيعون انتاجهم من السمك بطرابلس وبالتّحديد بالواحات الساحليّة لزوارة، حيث يقع استبدال الأسماك المجفّفة بالسّلع القادمة من السودان عن طريق غدامس (12).

ومنذ انتصاب الإدارة العسكريّة بجرجيس (1888)، قام بعض الضباط بدراسة إمكانيّة استغلال أفضل لهذه البحيرة (13). ووافقت السلطات الفرنسيّة بعد نجاح مشروع استغلال بحيرة تونس، على تأجير بحيرة البيبان في 7 ديسمبر 1896 إلى المستثمرين "ديّس" Deiss و"دومانج" Domange، اللذان قاما ببعث "شركة توصيّة" Société en Commandite par action في 4 ماي 1889 تحوّلت فيما بعد إلى شركة خفية الإسم "Société anonyme" لاستغلال منتوج البحيرة من الأسماك. واشتغل الصيادون القدامى أجراء لدى الشّركة بعد أن تمّ انتزاع مصيداتهم الخاصّة (14). وقد أرادت هذه الشركة اتباع مثال المستغلين لبحيرات الشّمال التونسي وأن تصدّر لأروبا الأنواع الجيّدة من الأسماك التي اشتهرت بها البحيرة. فقامت بجلب تجهيزات كبيرة للتبريد وصنع الثلج. وأقامت مصيدات جديدة بالبحيرة بلغ عددها 33 مصيدة (15) واشترت سفينة كبيرة لحمل الأسماك من البيبان إلى صفاقس.

والظّاهر أن التقديرات الخاطئة للإمكانيات والأسواق أوقع هذه الشركة تحت ثقل متطلّبات القروض الكبيرة التي مكّنت من شراء هذه المعدّات. ورغم المساعدات التي تلقتها الشركة من مصلحة البريد والتي كانت تدفع لها 8 آلاف فرنك في السنة مقابل حمل بعض المسافرين والرّسائل من صفاقس إلى جربة والبيبان، فإنّ هذه الشّركة لم تستطع الصّمود طويلا وتمّ سنة 1902 كراءها لمستغل جديد ويدعى فرديي Verdier الذي قام باستغلالها إلى حدود سنة 1904، لتسوّغ من جديد إلى المستثمر "بوناسيو" Bonnassieux (16) وفي سنة 1906 وصل عجز هذه الشّركة إلى الحدود التي أصبح فيها خلاص أجور الموظّفين غير ممكن (17) فتم التخلّي عنها.

وفي سنة 1907 اكترى "قاسبار بايل" Gaspard Bayle البحيرة وأضاف إلى نشاطها القديم مصنعا لمصبّرات الأسماك. ولكن هذه الصّناعة لم تعط النّتائج المرجوة وذلك لانعدام رواج المصبّرات بتونس، البلد السّاحلي الذي يوجد به السّمك الطّازج بوفرة، وكذلك بسبب الأداء القمرقي الموظّف على دخول مثل هذه البضاعة إلى السوق الفرنسيّة. فتوقّف هذا المشروع من جديد عام 1913، وتمّ التفويت فيه لأحد المحليين الذي باع التّجهيزات التي تركتها الشّركتان الأولى والثّانيّة واقتصر على بيع الأسماك بمناطق التّراب العسكري (18)، ليتوقف بدوره عن الإنتاج سنة 1915. وفي 15 سبتمبر 1923 قام "بيار أومسا" Pierre Omessa ببعث شركة خفيّة الإسم لاستغلال البحيرة، وهي "شركة الصّيد الفرنسيّة"، ودام عقد الكراء إلى 14 جانفي 1932. وقد شهدت البحيرة مع هذه الشّركة تجربة متميّزة، حيث تطور الإنتاج ليفوق في بعض السّنوات 250 طن. كما اتّسع سوق التّوزيع بعد تحسّن ظروف النّقل باستعمال شاحنة من بن قردان إلى قابس ثم السكك الحديديّة حتى تونس العاصمة (19).

ب- انتاج البحيرة :

عرف تطوّر صيد السّمك بالبحيرة فترات متعدّدة اتّسم بعضها بوفرة الإنتاج والبعض الآخر بالقلّة، وذلك للصّعوبات التي واجهها المستثمرون. وقد تطوّر الإنتاج كما هو مبيّن بالجدول كالتّالي :

تطوّر انتاج الأسماك ببحيرة البيبان (1898 - 1929) (بالطن) (20)

السنة	1898	1899	1900	1901	1902	1903	1904	1905	1906
الإنتاج(طن)	125،3	145،3	199،6	149	49،2	66	163،6	98	59،7
السنة	1907	1908	1910	1911	1912	1913	1914	1915	1923
الإنتاج(طن)	23،7	117،5	99،9	18،9	42،6	58،2	26،5	21،3	161،4
السنة	1924	1925	1926	1927	1928	1929			
الإنتاج(طن)	216،4	303،1	176	61،9	210،3	252،9			

ويبيّن هذا الجدول تواتر سنوات الرّفاه والسّنوات الصّعبة على مستغلي البحيرة، ويبدو أن رأسمال المستثمرين في الفترة ما بين (1898 - 1915) لم يكن قويّا، حيث أنّه بمجرّد تراجع انتاج البحيرة لسنة أو سنتين يقوم المستثمر بالتفريط في مشروع استغلالها لأحد آخر. وحسب منحنى الإنتاج يمكننا تقسيم نشاط البحيرة أساسا إلى فترتين :

*** فترة أولى 1898 - 1915 :**

وهي الفترة التي يميل فيها منحنى الإنتاج نحو الإنحدار، رغم التحسينات الظرفيّة التي مردّها إنتقال الإنتاج من 126 طن سنة 1898 ليصل سنة 1915 إلى حدود 21 طن، ويرجع هذا الإخفاق إلى عدّة أسباب لعلّ أهمّها :

– ضعف السّند المالي للمستثمرين، وبالتّالي عدم التّمكن من امتصاص وقع الأزمات التي تتالت بصفة دوريّة دافعة هؤلاء المستثمرن إلى التّخلي عن النّشاط.

– عدم ملائمة بعض الإستثمارات المكلّفة لواقع الإقتصاد ولعادات الإستهلاك، ونذكر على سبيل المثال ما قام به "بايل" الذي أقام مصنعا لمصبّرات السّمك سنة 1907 أغلقه بعد بضع سنوات نظرا لعدم رواج المصبّرات بسوق ساحليّة تقتني عادة السّمك الطّازج. وكذلك ما قام به المستثمران "ديس" و"دومازج" باقتنائهما سفينة لنقل الأسماك نحو صفاقس سرعان ما تحوّلت، لتدارك نقص الإستغلال، إلى سفينة لنقل المسافرين والرّسائل البريديّة

- نقص التّجربة لدى مسيري الشّركات، فغالبا ما كانت قراراتهم خاضعة للظّروف والصّعوبات التي يمرّون بها دون التّأثير فيها. ونذكر على سبيل المثال التذبذب الحاصل في عدد البحّارة بالنقصان والزيادة كقيام"بوناسي" Bonnassieux سنة 1904 بالتنقيص من عدد البحّارة من 27 يشغّلون 19 مركبا إلى 13 بحّارا يشغّلون 4 مراكب فقط ذات حمولة متدنية. ويصل عدد البحّارة في بعض الحالات إلى 38 بحّارا يمتطون ستّ مراكب :

(21)

السنة	1903	1904	1905	1907	1908	1910	1911	1912	1913	1914	1915
عدد المراكب	19	4	4	8	6	6	28	6	6	1	1
نسبة إشغال كلّ ركب	1،42	3،25	3،25	1،25	1،66	1،66	0،46	6،33	3	3	3

- بعد مركز الإنتاج عن الأسواق الرّئيسيّة (صفاقس وتونس) ممّا يرفع في تكلفة النّقل وينقّص من جودة الإنتاج الذي يجب أن يصل مجمدا إلى السّوق، وبالتّالي تصبح امكانيات المنافسة محدودة.

- تعقّد عمليات تصبير السّمك المعدّ للتّصدير، إذ تعاد عمليّة التّثليج من جديد في ميناء تونس.

-السّياسة الحمائيّة المنتهجة في الأسواق الأروبية لدخول منتوجات البحر المصبّرة (22).

- تثقيل كاهل هذه الشّركات المستثمرة لبحيرة البيبان، على خلاف شركات البحيرات الأخرى، بضريبة سنويّة تقدّر بعشرين ألف فرنك (23). وقد أدّت كلّ هذه الأسباب مجتمعة إلى توقيف نشاط استغلال البحيرة سنة 1915.

*** فترة ثانية : 1923 - 1929 :**

بعد غياب للنّشاط من 1916 إلى 1922، تأتي الفترة الثّانية المتميّزة أساسا بانتعاشة ظهرت جليّة في الإتّجاه التّصاعدي للإنتاج رغم ما

يتخلّله من فترات تراجع ظرفيّة خاصّة في سنتي 1926 و 1927. ولكن بالرّجوع إلى العائدات الماليّة نلاحظ تصاعدا في هذه العائدات رغم التّراجع الكمّي، وسبب ذلك هو التّوجه نحو نوعيّة جديدة في الإنتاج تعتمد على تغليب النوعيّة ذات الثمن المرتفع، ممّا ينعكس إيجابيّا على مردوديّة كلّ مركب. وبما أن السّوق لا تستطيع أن تستوعب انتاج كلّ المراكب الموجودة في الخدمة فقد اضطر المستثمر إلى التنقيص في عدد البحّارة سنة 1926 ثمّ في عدد المراكب سنة 1927 وهو ما يفسّر تناقص الإنتاج في هذين السنتين وارتفاع المداخيل.

وقد بلغ معدّل الإنتاج في هذه الفترة 212،14 طن، وبلغ أقصى الإنتاج سنة 1925 303 طن.

ولعلّ النّجاح الذي حالف المستثمر الجديد "بيار أومسا" Pierre Omessa يرجع إلى طريقة تسييره لعمليّة الإنتاج في البحيرة المتميّزة أساسا ب :

- التّرفيع في عدد المراكب وعدد البحّارة، فقد وصل عدد المراكب في سنة 1923، وهي سنة بداية الإنتاج، 22 مركبا اشتغل عليها 48 صيادا وبلغ العدد الأقصى للمراكب 28 مركبا، والعدد الأقصى للبحّارة 64 بحّارا، منهم 10 ايطاليين.

- الإستفادة من طرق المواصلات التي تمّت تجربة فعاليتها، أساسا استعمال السكّة الحديديّة الأسرع والأقل تكلفة.

- ضبط سياسة انتاجيّة جديدة تعتمد على انتاج وتسويق أسماك ذات جودة عاليّة، ممّا انعكس إيجابيا على المردوديّة العامّة لعمليّة الإنتاج، وكذلك انتهاج سياسة تجاريّة تتجه أساسا للسّوق الدّاخليّة لتجنب التكلفة العاليّة المصاحبة لعمليّة التصدير، حيث لم تمثّل نسبة الصّادرات سنة 1929 إلا 10،4 بالمائة بعد أن كانت سنة 1924 تمثل 28،2 بالمائة.

-الاستفادة من تطوّر عدد السكان وخاصة سكّان المدن مع ما صحبه من تبدلات في تقاليد الإستهلاك، ليرتفع بذلك الطّلب في الأسواق، وترتفع أثمان بيع الأسماك في نفس الوقت.

ولكن هذا الإرتفاع في مدخول الشّركة لم يرافقه ترفيع في مستوى عيش البحّارة من الأهالي المشتغلين بها والذين ارتفع عددهم من 38 بحّارا سنة 1923 إلى 54 سنة 1929 حيث ظلّت أجرتهم متدنية (بالمقارنة مع أجرة الصيّادين الإيطاليين) وكانوا يعيشون في حالة كبيرة من البؤس، ويسكنون الأكواخ (24) وقد تفادت كلّ المصادر الفرنسيّة التي تناولت بالدّراسة هذه البحيرة التطرّق إلى الوضعيّة الإجتماعيّة التي كان يعيش عليها البحّار.

ج – صيد الإسفنج بجرجيس :

تعتبر السّواحل التونسيّة الممتدّة من المهديّة إلى رأس الجدير سواحل غنيّة بالإسفنج. ويقسّم الإسفنج في التّبادل التّجاري إلى أربع أنواع هي : القرقني والجربي والجرجيسي واسفنج أجيم، ويعدّ اسفنج جرجيس الذي يتميّز بجذوره البيضاء أجود هذه الأنواع (25).

وقد كان من الطبيعي أن يهتمّ "عكّارة" باستغلال هذه الثروة الطبيعيّة المتواجدة على سواحل جرجيس على ما يقارب 140 كلم، وذلك للمردود الذي يوفّره هذا النّشاط الذي يعدّ أهمّ من مردود صيد الأسماك. ولهذا فإنّ أغلب المراكب المتواجدة بجرجيس والتي بلغ عددها سنة 1888 - 130 مركبا تخصّصت في صيد الإسفنج (26) وقد بسط البحّارة بجرجيس مجال نشاطهم أيضا على سواحل جزر قرقنة وسواحل طرابلس من رأس الجدير إلى زوارة، أين تتواجد أنواع أكثر جودة من الإسفنج.

وينقسم نشاط صيد الإسفنج بجرجيس إلى موسمين :

موسم أوّل يمتدّ من شهر نوفمبر إلى شهر مارس ويقوم فيه "عكّارة" بصيد الإسفنج على سواحل جرجيس وطرابلس. وتكون عائدات المراكب من الصيد في هذا الموسم كبيرة، وذلك لأنّ النباتات البحريّة التي تغطّي الإسفنج في الأعماق

تنتزع وتطفوا على السّطح بفعل العواصف ويبقى الإسفنج بذلك واضحا داخل الأعماق ويسهل على الصيادين إلتقاطه (27).

أمّا الموسم الثاني، فتتجه فيه مراكب عكّارة في شكل مجموعات إلى سواحل جزر قرقنة ويمتدّ هذا الموسم على كامل فصل الصّيف من شهر جوان إلى شهر سبتمبر، عندما تصل النباتات البحريّة إلى أوجّ نموّها والتي يستعملها البحّارة كدليل على تواجد الإسفنج (28). وتقوم المراكب في هذه الفترة ببيع صيدها بميناء صفاقس. وتكون العائدات في هذا الموسم أقلّ من الموسم الأوّل.

ويستعمل البحّارة بجرجيس لصيد الإسفنج طريقة "المخطاف" الذي يوجد بأسفله شوكة ثلاثية Trident ويبلغ طوله 8 أمتار، والذي يضاف إليه ثلاثة عصي: إثنان بثمانية أمتار وواحدة بأربع أمتار، للتمكن من الوصول إلى الإسفنج بعمق 30 مترا. ويجهّز مركب الصّيد من الأمام بكثيب Dunette يكون موضعا لانتصاب ملتقط الإسفنج. وتكون هذه المراكب مجهّزة عادة بثلاثة بحّارة، واحد لالتقاط الإسفنج Harpeneur واثنان من المجذّفين. وتعدّ مهمّة ملتقط الإسفنج الأصعب، حيث عليه في آن واحد استعمال المرآة التي يبلغ قطرها 30 سم وطولها 40 سم للمحافظة على صفاء مياه سطح البحر من الأمواج، وأنّ يلتقط الإسفنجة من القاع وذلك بأنّ يدخل فيها الشوكة الثلاثيّة Trident ويقوم بقلعها من القاع وذلك بقيامه بعمليات تدوير وجذب للمخطاف في نفس الوقت (29).

وقد اختصّ بحّارة جرجيس ببيع "الإسفنج الأسود" أي بدون أن يقوموا بعمليّات تحضير وتنظيف لصيدهم. أمّا الإيطاليون واليونانيون الذين توافدوا إلى سواحل جرجيس منذ سنة 1903 (30) فقد اعتمدوا طرق أخرى لصيد الإسفنج مثل الغطس و"الكركارة" Gangava، وتتطلّب الطّريقة الأولى تقنيات حديثة وتجهيزات مكلفة (31)، أمّا الطريقة الثانيّة فقد وقع منعها من طرف السّلطات بالقانون الصّادر في 29 ماي 1889 والذي حجّر استعمال "الكركارة" في أشهر مارس وأفريل وماي، وذلك للأضرار التي تلحقها بأعماق البحر.

ج1 – تطوّر انتاج الإسفنج بجرجيس :

شهد قطاع صيد الإسفنج بجرجيس تطورا هامّا ومطردا، خاصّة في العشرية الثانيّة من هذا القرن، وقد شمل هذا التّطور الزيادة في عدد المراكب والصيّادين ممّا أدّى إلى الزيادة في الإنتاج كما هو مبيّن بالجدول التالي :

تطوّر إنتاج الإسفنج بجرجيس (1901-1929) (بالكلغ) (32)

السنة	**1901**	**1903**	**1904**	**1905**	**1907**	**1908**	**1910**	**1911**	**1912**
تطوّر الإنتاج	800	900	1991	2673	4345	2281	1038	929	5000
السنة	**1913**	**1914**	**1915**	**1916**	**1917**	**1918**	**1919**	**1920**	**1921**
تطوّر الإنتاج	6000	4164	5860	622	339	815	1647	4695	3150
السنة	**1922**	**1923**	**1924**	**1925**	**1926**	**1927**	**1928**	**1929**	
تطوّر الإنتاج	5040	9920	18895	23600	19123	35570	18860	14560	

– المنحنى البياني للإنتاج :

ويبرز هذا الجدول الإتجاه التّصاعدي لهذا الإنتاج، والذي يمكّننا من تقسيم فترة النّشاط إلى فترتين رئيسيتين وهما :

* **فترة أولى تمتدّ من 1901 – 1919** : اتّسم فيها الإنتاج بالتّراوح نحو الزيادة والنقصان، حيث يشهد تصاعدا في سنوات 1907، ومن 1912 إلى 1915. ويمكننا تفسير الزّيادة في الإنتاج التي تمّت سنة 1907 بالزّيادة في عدد الصيّادين والمراكب، حيث انتقل هذا العدد من 315 صيّادا يمتطون 105 مركبا إلى 466 صيّادا يمتطون 155 مركبا. ونفس هذا التفسير يمكن أن نعطيه للزّيادة الحاصلة سنوات 1912 – 1915. أمّا السّنوات التي شهدت تراجعا في الإنتاج فتنقسم بدورها إلى فترتين : فترة أولى من 1908 – 1911 والتي لا يفسّرها تراجعا في المراكب أو التقنيات المستعملة، ولعلّ التفسير الأكثر احتمالا لهذا التّراجع هو وجود بعض الظّروف الطبيعيّة غير الملائمة لتطور الإنتاج (سواء الأحوال الجويّة، نقص الإسفنج في الأعماق ...)(33)، وفترة ثانيّة امتدّت من 1915 – 1919 : وهي فترة الحرب العالميّة الأولى، وقد مثّل حضور الغوّاصات والسّفن الحربيّة قرب السّواحل التونسيّة في هذه السنوات عائقا أمام نشاط صيّادي الإسفنج.

* أمّا الفترة الثانيّة فتمتدّ من 1920 إلى 1929، وقد شهدت تطوّرا متميّزا للإنتاج بلغ سنة 1926 : 19123 كغ من الإسفنج الأسود و1550 كغ من الإسفنج الأبيض. ويمكّننا التطور الحاصل في عدد المراكب في هذه السنة الذي وصل إلى 255 مركبا وكذلك التطوّر في عدد الصيّادين (836 صيّادا) من تفسير هذه القفزة في الإنتاج الذي كان لا يتجاوز في العشريّة الأولى والثانيّة 6000 كغ.

أمّا الزّيادة الهامّة الحاصلة سنة 1927 والتي بلغ فيها صيد الإسفنج 35570 كغ فيمكننا تفسيرها بتشغيل بعض المراكب (وصل عددها ال54 مركبا) الأربعة صيادين عوض ثلاثة في السّنوات الفارطة، وقد يكون ذلك نتيجة توفّر الإسفنج في الأعماق في هذه السّنة. ذلك لأنّ الإنتاج سيسجّل تراجعا إلى مستوى السّنوات الفارطة سنة 1928 وليبلغ 14560 كغ سنة 1929. وقد قفز انتاج المنطقة من الإسفنج في هذه الفترة ليفوق انتاج حومة السّوق واجيم وقابس، واحتلت جرجيس بذلك المرتبة الثانيّة في صيد الإسفنج، حيث ظلّ الأهالي معتمدين على طرق الصيد القديمة وسجّلت بالمقابل مراكب صيد الإسفنج تراجعا في سعة الحمولة على غرار مراكب صيد الأسماك، مبيّنة بالجدول كما يلي :

سعة حمولة مراكب صيد الإسفنج بجرجيس (بالبرميل) (34)

السنة	1905	1910	1915	1920	1925	1930
سعة الحمولة (بالبرميل)	2	1،56	1،53	1،44	1،30	1،22

كما رفق تطور الإنتاج تطورا في عدد البحّارة وكذلك ارتفاعا للعائدات الماليّة وهي مبيّنة بالجدولين التاليين :

تطوّر عدد صيادي الإسفنج بجرجيس (1905-1929) (35)

السنة	1905	1910	1915	1920	1925	1929
عدد البحّارة	315	495	324	554	741	717

تطوّر العائدات الماليّة لصيد الإسفنج (1905-1929) (بالفرنك) (36)

السنة	1905	1907	1908	1910	1911	1912	1913	1914	1915	1916
جملة عائدات المراكب	1550	5000	7400	6608	4960	0000	6000	6620	0558	6246
م. عائدات كلّ مركب	206	549	267	101	91	474	562	419	376	48
م. عائدات كلّ بحّار	41	110	54	20	18	95	113	84	75	9،5
سنة	**1920**	**1921**	**1922**	**1923**	**1924**	**1925**	**1926**	**1927**	**1928**	**1929**
العائدات الجمليّة	977	618	1306	1799	2196	5884	5496	1539	6615	6613
م. عائدات كل مركب	977	618	1306	1799	2196	5884	5496	1539	6615	6613
م. عائدات البحّار **	196	124	261	360	439	1176	1099	2308	1323	1322

ويبيّن لنا هذا الجدول تذبذب دخل الفرد البحّار في العشريّة الأولى والثانيّة من القرن والذي لم يفق في أحسن الحالات 113 فرنك في السنة ووصل إلى 18 فرنك سنة 1911. ولم يشهد دخل البحّار إستقرارا إلا مع بداية العشرينات، ليفوق الألف فرنك منذ سنة 1925، وسجّلت سنة 1927 رقما قياسيا في معدّل دخل البحّار حيث وصل قرابة 2308 فرنك. ولكن هاته العائدات لا ترجع كلّها للبحّارة حيث تخصم منها الضريبة الموظفة على المراكب (حسب القانون الصّادر في 16 جوان 1829 والذي عوّض لزم الإسفنج القديمة). وتبلغ قيمة هذه الضريبة بالنسبة إلى المراكب التي تتعاطى صيد الإسفنج الأسود 30 فرنك على كل مركب في السنة يضاف إليها خصم 10 بالمائة من انتاج كلّ مركب، وتم حسب نصّ قانون 15 جانفي 1895 إلغاء خصم ال 10 بالمائة من الإنتاج ولكن ارتفعت الضريبة الموظفة على المراكب إلى 75 فرنك في السنة (37).

ولم تكن هذه الضريبة الموظّفة على عائدات الإسفنج هي الوحيدة المفسّرة لقلّة دخل البحّارة حيث إستغلّ بعض المعمّرين الذين تولوا خطّة رايس للمرسي، وكذلك الدّلالة بسوق بيبع الإسفنج، مناصبهم للإستحواذ على نصيب من عائدات البحّارة باستعمال طرق التحايل والتهديد، حيث قام "ماتيي" Mattei رايس المرسى سنة 1901 بالتنقيص من قيمة مبيعات الإسفنج للمدعوين "عبد اللّه بن عبد الدّائم" و"علي بن محمد معتوق"، وفرض عليهم بيعها ب 38 فرنك، عوض

المبلغ المسجّل بدفتر الدلاّل وهو 48 فرنك وعندما اشتكاه المدعوان إلى السّلطة العسكرية بالجهة قام بمنعهم من إرتياد الميناء (38) ويبرز لنا هذا المثال التسلّط الإستعماري واستعمال النفوذ الذي كان يعاني منه البحّار في الجهة.

خاتمــة :

هناك عديد الإشكاليّات التي تبقى قائمة عند دراسة هذا الموضوع وخاصّة تلك التي تخصّ الحياة اليوميّة للبحّارة بجرجيس والمشاكل التي تعرّضوا لها والنّتائج التي ترتّب عنها هذا الإستغلال المفرط للثّروات البحريّة بالجهة، وربّما مع امكانيّة وجود مصادر أهليّة أخرى حول هذا الموضوع سوف تتوضّح جوانب هامّة منه.

عبد الرحمان الونيسي

باحث تاريخي

الهوامش

(1) Bailly (lieutentant), Notice sur les Accara, ISHMN; Fonds de résidence Bodine G16, Carton 121, p. 61.
(2) DGTP,Tableaux statistiques, Fasicule II, années 1907 - 1929.
(3) Ibid, 1917, p. 57.
(4) Ibid, Années 1907 et 1917.
(5) Ibid, Années 1917 et 1927.
(6) إستعمل صيّادو السّمك بجرجيس صنفين من المراكب الأوّل يسمّى "Loudes" ويبلغ طولها بين 8 أمتار و 12 مترا ولها قاع مسطّح، والثانية وتدعى "Carèbes" وتشبه النوع الأوّل كثيرا ولا تختلف عنه سوى في كيفيّة نصب الشّراع أنظر... Servonnet et lafitte, le golfe de Gabès, op. cit, p. 337
(7) DGTP,Tableaux statistiques, Fasicule II, années 1904 - 1920- 1928.
(8) Ibid, Années 1907 - 1915 - 1922 - 1926 - 1928.

(9) DGTP, Tableaux statistiques, Fasicule II, Années 1922 1928.
(10) Servonnet et Lafitte, En Tunisie; le golfe de Gabès en 1888, Paris, 1888, p. 359.
(11) De Fages (E) et Ponzevera (C) : Pêches maritimes de la Tunisie, Tunis, 1908 p. 67.
(12) Rebillet (capitaine), "Le bahira des Bibans et Medeina", in Bulletin archéologique, 1892, pp.126- 128.
(13) أ – و ، سلسلة E ، صندوق 396، ملف عدد1.
(14) Rencé Bellair - Bandier, "La pêcherie des Bibans" in Bulletin économique, N° 92, Septembre 1954, p.44.
(15) De Fages(E) et Ponzevera (C), op cit, p. 111.
(16) أ – و ، سلسلة E ، صندوق 396، ملف عدد6.
(17) Filio (Capitaine), Importance économique des régions de Zarzis et de Ben Gardene, Tunis, IRMC, Rapports études et conférences, 1921. p. 123.

(18) Guevel A, "l'industrie des pêches sur les côtes Tunisiennes", in Bulletin de station océanique Salammbo, N°4, Juin 1926, p. 113.
(20) DGTP, Tableaux statistiques, Fasicule II, années 1898 - 1929.
(21) DGTP, tableaux statistiques, Fasicule II, années 1903 - 1915.
(22) Filio (Capitaine), op cit p. 121.
(23) De Fages(E) et Ponzevera (C), op cit, p. 114.
(24) Thomas (J), A travers le Sud Tunisien, Paris, 1930, p. 38.
(25) De Fages (E) et Ponzevera (C), op cit, p. 234.

(26) Servonnet et Lafitte,op cit , p.359.
(27) Boulland (Commandant), Causerie sur l'économie du Sud Tunisien Tunis, 1947 , IRMC, Rapport étude et conférence, T.2, N°7, p. 188.

(28) تنمو هذه النباتات عادة قرب الإسفنج.

(29) Filio (Cap) op. cit. p. 126.

(30) بلغ عدد هؤلاء البحّارة سنة 1903 78 بحّارا، امتطوا 13 سفينة لها سعة حمولة تقدّر بحوالي 20 برميلا للمركب الواحد. وتمكّنوا من صيد 10500 كلغ من الإسفنج الأبيض بفضل الطرق المتطوّرة التي استعملوها. ويبدو أنّ القوانين الحمائية التي انتهجتها السلطة في 17 جويلية 1906 والتي رفعت من قيمة الضريبة على المراكب اليونانية الى 400 فرنك وتحجير استعمال طرق الكركارة والغطس في السواحل التي يفوق عمقها 10 أمتار، كانت وراء اختفاء هؤلاء الصيّادين من المنطقة سنة 1907.

(31) Boulland (Commandant), Op. cit. p. 188.
(32) DGTP, Tableaux statistiques, Fasicule II,années (1901- 1929).

(33) يرى البحّارة بأنّ فترة الأزمات المتواجدة بالأرض (جفاف - 1908 - 1911)تتبعها أزمة إنتاج بالبحر - بدون إعطاء تفسير مقنع لذلك أنظر :

Liauzu Claude : "Les pêcheurs tunisiens à la veille de la deuxième guerre mondiale " , in IBLA, N° 34 / 128, 1971, pp.310 - 311.
(34) DGTP, Tableaux statistiques, Fasicule II, années (1920 - 1929).

(35) DGTP, Tableaux statistiques, Fasicule II, années (1901 - 1929). (36) Ibid, Années 1905 et 1929.

(37) تقسّم عائدات الإسفنج بجرجيس إلى خمس حصص : حصّتان للرّايس وحصّة للمركب وحصّة للمركب وحصّة لكلّ بحّار.

(38) أ- و، سلسلة E، صندوق 397، ملف عدد 1، رسالة من المدعوين عبد اللّه بن عبد الدّائم وعلي بن محمد معتوق إلى الوزير محمد العزيز بوعتور بتاريخ 30 ديسمبر 1901. أنظر الملحق.

جرجيس

الاستاذ عبد المجيد ذويب

بفتح الجيم وسكون الراء مدينة ساحلية بالجنوب الشّرقي تبعد عن تونس بنحو 540 كلم. تعد بلدتها (وهي أقدم بلديّة في ولاية مدنين تأسّست سنة 1889) 49.000 ساكن (احصاء سنة 1984) موزّعين على أربعة فروع : جرجيس المركز (18.000) والمؤانسة والسويحل وحسي الجربي.

تقع المدينة في الركن الشّمالي الشّرقي لشبه جزيرة يحيط بها البحر الأبيض المتوسّط شرقا وشمالا وخليج بوغرارة غربا. وتتألّف تضاريسها من عنصرين إثنين: هضبة متواضعة مجلّلة بالزياتين في الشّمال الغربي وأراضي منخفضة مخصّصة للمراعي والحبوب والباكورات تتخلّلها سباخ أهمّها سبخة الملح، في الجنوب الشرقي. ترتفع الهضبة (دخلة عكّارة) تدريجيّا من سباخ خليج بوغرارة حتّى تصل 79 متر (رأس الظهرة) ثمّ تنكسر على بعد كيلمتر واحد من البحر فتؤلّف جرفا يمتدّ تحته شريط واحات السويحل وصنغو – حسي الجربي. ويفصل بين البحر ومنطقة الأراضي المنخفضة تل مستطيل يسمى صلبا يبدأ من رأس جدير على الحدود التّونسيّة الليبيّة فينكسر أمام بحيرة البيبان ثم يتواصل في امتداده وارتفاعه المتواضع إلى موضع جرجيس المركز حيث يحجز وراءه سهل القرعاء. فوق ذلك التلّ نشأت جرجيس ثمّ توسّعت فاستوعبت سهل القرعاء إلى أنّ أحدثت السيول النازلة من رأس الظهرة كارثة في سنة 1969 عجل على إثرها بنسف جزء من التلّ الصخري لإيجاد متنفّس لمياه الفيضانات نحو البحر.

في جرجيس تلتقي طرقات بن قردان (وليبيا) ومدنين (وتونس) وجزيرة جربة التي لم يعد يفصل بينها وبين القارة مضيق منذ أن رممت قنطرته الأثريّة. وللمدينة وظائف متعدّدة. : زراعيّة (زيتون – فواكه – أسماك – اسفنج) وصناعيّة

(زيت – صابون – معامل تصبير ومواد بناء) وتجاريّة وسياحيّة (4000 سرير) وإداريّة (مركز معتمديّة) ولئن تضاعف عدد سكّان بلدتيها منذ سنة 1946 فإنّه لم يبلغ نسق التزايد القومي بسبب الهجرة نحو تونس وليبيا وفرنسا.

وجرجيس محطّة ساحليّة قديمة أسّسها الفنيقيون لأهميّة موقعها. أمّا مركز الحياة السياسيّة والإقتصاديّة فقد كان يوجد في مدينة زيتا (أوزيزا) على مرتفعات هنشير زيّان التي تبعد عن جرجيس بنحو 8 كلم غربا وقد أثرت زيتا ميناء يوجد على ساحل خليج بوغرارة الهادي الأمين (في موضع الرّصيف حاليّا) يحمل إسمها (بونس زيتا) أي مرسى زيتا مع أنّه يبعد عنها بمسافة أثنى عشر كلمترا. كان ذلك الميناء يربطها عبر بحر بوغرارة بمدينة جيغتي بيد أنّ طريقها نحو صبراطة والشرق إنّما كان يمرّ، غالبا، جنوب بحيرة البيبان تاركا جرجيس في الشّمال وراءه. أمّا مسلكها نحو مدينة مينانكس في جنوب جزيرة جربة فقد كان بواسطة قنطرة مدّت في مضيق على طول سبعة كلمترات وهي نفس القنطرة (التي كانت مغمورة) والتي تمّ ترميمها وتعليتها في الخمسينات فساهمت في انتعاش الجزيرة وازدهار سياحتها منذ أن وازاها انبوبان للماء الصالح للشّراب وخطّ كهربائي.

وزيتا مدينة ذات قلعة وفوروم ومعبد ترومنت دون أن تفرّط في تقاليدها الشرقيّة. ازدهرت في القرن الأوّل والثّاني خاصّة واشتهرت بزيوتها وخمورها وسياسة أمورها من لدن فئة ارستقراطيّة ثريّة كانت مولعة بالتّرف ومظاهر العظمة وتقديس الأباطرة المجسّمة فيما بقي من حطام المرمر المنحوت كالرّأس العظيم للامبراطور كلوديوس واليد العملاقة الممسكة كرة.

بدأ التنقيب عن آثار زيتا ولكن بصفة غير منتظمة منذ سنة 1846 وقد زارها علماء أجلاء من بينهم باخت الألماني وريناك الفرنسي واكتشفوا أعمدة وتماثيل مرمريّة كثيرة ونقائش توجد الآن موزّعة على متاحف اللّوفر وسوسة وباردو. كما نبشت سكك الحراثة المعمّقة بصفة عفويّة منذ عهد قريب جدّا عدّة شواهد وأوان وآثار فينيقية وقع تجميعها في متحف أحدث في مدينة جرجيس لهذا الغرض.

وفي الفترة الفاصلة بين نهاية الإمبراطوريّة الرومانيّة وبداية القرن الثاني عشر يغمر المنطقة غموض لا ندري هل أنّ سببه راجع إلى إنعدام الوثائق أم ناتج عن تعاقب الغارات البريّة والبحريّة واعتصام السكّان بمعاقل جبال دمّر.

في القرن الثاني عشر فقط يبيّن الإدريسي في نزهته أنّ المنطقة الساحليّة كانت عامرة يسكنها قوم من الوهبية "ضيافون يطعمون الطّعام ويندبون إلى طعامهم ويسالمون النّاس في أموالهم وفيهم عدالة بيّنة لمن نزل بهم" غرسوا النّخيل والكروم وتحصنوا في "قصورٌ" جرجيس وشماخ... وجزيرة زيزوا (المغمورة حاليّا) كما تبيّن وثائق القرن الثالث عشر الإسبانيّة التي درسها دي فورك في أطروحته انّ جرجيس كانت ميناء لتصدير الملح نحو أوربّا ويقول التّجاني في رحلته إثر حملته الجبائيّة (1306 -1308) : "وهناك السّبخة المفضّل ملحها على جميع السّباخ ومنها يمتار أكثر بلاد النصرانيّة" ويوكّد ذلك كلّ من العيّاشي في القرن السّابع عشر (وفي المحل مرسى جيدة ينزل بها النّصارى بإذن أمير البلد يأخذون الملح من سبخة كبيرة هناك وفيها ملح عجيب) والورثيلاني (القرن الثامن عشر) في رحلتيهما.

ويسمّى سكّان جرجيس وشبه جزيرتها "عكّارة" هزهم الإعلام إلى مدارجه القصوى إثر فاجعة 5جوان 1907 (عام القارب في الذّاكرة الجماعيّة) التي مات أثناءها ثلاثة وسبعون فلاّحا جاؤوا من جرجيس في زوارقهم إلى موضع "الكتف" (على مقربة من الحدود مع ليبيا) لحصاد زروعهم. وكان الحاكم العسكري بجرجيس قد سخّرهم -مكرهين- ليحجزوا سفينة تهريب أجنبيّة شحنتها بارود وأسلحة- تفجّرت كالبركان عند وصول زوارق الحصار إليها.

وعكّارة نسبة إلى الشّيخ الصيّاح العكّاري (أصيل المغرب الأقصى) الذي رابط أثناء النّزاع العثماني الإسباني في موقع مرحلة من مراحل قافلة الحج على مقربة من مدينة بن قردان المستحدثة حيث يوجد ضريحه وكان معلما هاما ومزارا منتظما مشهودا تؤمّه جموع عكّارة في موسم الرّبيع من كلّ سنة حتى بداية الإستقلال.

التفّ عكّارة حول الصيّاح وكانوا من صف الحسينيّة آزروا أولاد حسين بن علي برّا وبحرا لكنّهم انهزموا هزيمة نكراء في جزيرة جربة أمام الباشيّة (1735) ثمّ أدركهم النوائل (المقيمون حاليّا بزلطن في ليبيا) فقتلوهم تقتيلا ذريعا وأجلوهم من شبه الجزيرة فتفرّقوا حزائق قاصدين نواحي متعدّدة (الغار وضواحي طرابلس وبني معقل في جربة والسّاحل التّونسي والوطن القبلي وأرياف بنزرت ...) ولم يعودوا إلى أوطانهم إلاّ بعد انتصار الحسينيّة النّهائي في عهد علي باي (1759 - 1782) الذي بني لهم برجا محاطا بخندق (معزّزا بخمسة عشر مدفعا) تعلوه قنطرة معلّقة. واقطع علي باي عكّارة كامل المنطقة السّاحليّة (من الحدود مع ليبيا إلى خليج بوغرارة). وبدأت فترة استقرار نسبي تتخلّلها من الحين إلى الآخر غارات النّوائل. في تلك الفترة بنت فروع عكّارة الستة (أولاد بوعلي، أولاد سعيد أولاد محمد، الزاويّة، الموانسة، الخلائفة) منازلهم و" قصورهم" حول جرجيس وانتحلوا الزراعة والرّعي وصيد الأسماك مقسّمين رزنامتهم الفلاحيّة على النحو التّالي :

1- الحرث في الخريف ثمّ الرّجوع إلى جرجيس -2- انتجاع المراعي والحصاد في الربيع وبداية الصيف -3- وأخيرا الرّجوع إلى جرجيس لري البساتين وصيد الأسماك والإسفنج وجني التمر في الصيف والخريف.

واستمرّ ذلك النسق الموسمي في مجال زراعي مساحته 60.000 هكتار إلى أنّ طرق البلاد طارق الإحتلال الفرنسي فأصبحت جرجيس بحكم قربها من الحدود مع ليبيا مركزا من أهمّ المراكز الحربيّة يسوس شؤونها المدنية ضبّاط عجلوا ببناء مدينة عسكريّة مسيّجة كبتت تنفّس المدينة القديمة ومنعتها من التوسّع نحو الشاطئ فنزلت بناءاتها إلى سهل القرعاء وعلى طول طريقي جربة ومدنين وسكن المدينة بعض الأوروبيين وجمع من يهود جربة بيد أنّ عكّارة آثروا بناء منازلهم في البساتين المحيطة بجرجيس والأخرى الممتدّة على طول السّاحل الشّمالي. وفي سنة 1897 يبتز الإستعمار من الأراضي الصّالحة للزّراعة ثلثها (20.000 هكتار) ويوزّعها على 13 معمّرا ثمّ يحبس بعد الحرب العالميّة الأولى ثلثا آخر في صيغة ملكيّة على الشياع (أراضي إشتراكيّة) ويستأثر بصيد الأسماك في بحيرة البيبان. فلم يبق لعكّارة وقد تقلّص مجالهم إلاّ الهجرة. ولئن هاجر بعضهم إلى مدينة تونس وتخصّص آخرون في صيد الإسفنج فإنّ أغلبيتهم

آثروا البقاء فيما بقي لهم من الأراضي فغرسوا في ظرف قصير من الزمن مليون زيتونة ثمّ تجاوزوا حدودهم الإداريّة فأحيوا بالمغارسة أراضي دخلة ورغمة(الجرف وبوغرارة).

ولئن تجسّمت غريزة عكّارة الدّفاعيّة ضدّ الإستعمار الزّراعي في غراسة الزّياتين فإنّ تلك الغراسة السريعة والمكثّفة أحيانا (حيث يجب أن تقلّ) قد أدّت خاصّة بعد الإنتزاع الذي تمّ بمقتضاه بناء مدينة بن قردان لتمصير التّوازين وتعويض أملاك عكّارة الخاصّة بأملاك عروشيّة بغية "حمايتهم" من المدّ الإستعماري الزّراعي - أدّت إلى تقلّص مساحة المزارع والمراعي واختلال التوازن الإقتصادي التّقليدي وتفتت الملكيّة عند الأغلبيّة وتجمعها عند بعضهم (من غير عكّارة في الغالب).

ويتضاعف عدد السكّان (14.000 في سنة 1907 -30.000- في سنة 1946) ويتقهقر مستوى المعيشة ولم يحدث الإستعمار مشروعا اقتصاديّا يذكر عدا مصنع للغازات السامّة في سبخة الملح أثناء الحرب العالميّة الأولى، فلم تنتعش المدينة وتنشط وتتوسّع (في مدّ فوضوي تخلف عنه كلّ تخطيط) إلاّ بعد الإستقلال عندما افتتح مجال للسياحة برؤوس أموال محليّة وعبدت الطّرقات الرئيسيّة وامتدّت شبكات التنوير والماء الصّالح للشّراب وحفر ميناء للصيد البحري وآخر تجاري رغم أنّ ذلك النهوض رافقه استئصال للمعالم التاريخيّة(برج علي باي - زاوية سيدي مصدق "قصور" الموانسة وأولاد سعيد...) ورسوخ في المحافظة على نمطين قديمين للملكيّة : الملكيّة العظمى (زياتين الدّولة بضيعة شماخ العملاقة التي تمسح 6000 هكتار ونيف) والملكيّة العروشيّة، التي ازداد مشكلها تعقدا بعد الإستقلال وإثر الحاق 14000 هكتار (منطقة الصياح) بمعتمديّة بن قردان.

عبد المجيد ذويب

مقال نشر في دائرة المعارف التونسية بيت الحكمة قرطاج

كراس 1 - 1990

مصادر تاريخيّة وجغرافيّة

- الإدريسي (أبو عبد الله محمد... كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.
نابولي - روما 1962 الجزء الثالث (ص 307 - 306)
- التجاني - الرحلة. تحقيق حسن حسني عبد الوهاب 1377 الجزء الأوّل ص 319.
- العيّاشي (أبو سالم) الرّحلة. تصوير محمد حجّي الرّباط 1977 الجزء الأوّل ص 56.
- الورثيلاني (الحسين بن محمد) نزهة الأنظار في فضل علم التّاريخ والأخبار بيروت 1974 (ص130).
- ابن عبد العزيز (حمّودة بن محمد) الكتاب الباشي تحقيق محمد ماضور الدّار التّونسيّة للنّشر 1970 - الجزء الأوّل (ص48).

- Carte de la Tunisie au 1/200.000. Feuilles de Zarzis, Sidi Chemmakh.
- Carte de la Tunisie au 1/100.000. Feuilles de Zarzis. Sidi Chemmakh. Ben Gardane Alouet, El Gounna.
- Carte de Tunisie au 1/50.000 (1966-1971). Zarzis, Sidi Chemmakh, Jorf Bougrara.
- Perthuisot (Jean-Pierre) et Floridia (Sauveur). Carte géologique de la Sebkha el Melah.
- Mohamed Abou Ras Al Nasri. Descrption et Histoire de d'Ile de Djerba, traduit du manuscrit du Cheikh Mohamed par Exiga di Kaiser. Tunis 1884.
- Pelissier de Reynaud (E). Description de la Régence de Tunis. 1853.
- Barth (Dct.H) Voyages et découvertes dans l'Afrique Septentrionale et Centrale pendant les années 1849 à 1855, (Traduction Ithïer). 1860. 1861. tome I.
- Guerin (V). Voyage archéologique dans la Régence de Tunis. 1862.
- Rebillet (Cp.F.) Le Sud de la Tunisie. Gabès 1886.
- Servonnet (J) et Laffite (F) en Tunisie. Le Golfe de Gabès en 1886 - 1888.
- Résidence générale de France :
  * Historique de l'Annexe des Affaires Indigènes de Zarzis. Bourg- 1931.
  * Historique de l'Annexe des Affaires Indigènes de Ben Gardane. Bourg- 1931.
- Harry (Myriam). La Tunisie enchantée. Paris, Flammarion 1931.
- Sfar (Tahar). Journal d'un exité (1935). Tunis 1960.
- Audoin-Dubreuil (Louis) La presqu'île africaine. Paris Plon 1944.
- Gazalis (Annexe-Marie), la Tunisie par-ci, par-là, Tunis 1972.

- Pelissier de Reynaud (E). la Régence de Tripoli, les révolutions et les Deys de Tripoli, les Pachas Turcs et les Beys arabes. Revue des deux Mondes, 1 Octobre 1855, p.16.

- Tissot (C), Des routes romaines du Sud de la Byzacène. Revue Africaine, 1856 - 1857. I. pp.184-196.

- Reinach (Salomon) et Babelon (Ernest). Recherches archéologiques en Tunisie 1883 - 1884. Bulletin Archéologique. 1886. pp. 54 - 57.

- Toutain (J). Notes et documents sur les voies stratégiques et sur l'occupation militaire du Sud Tunisien à l'époque romaine par M.M. Les capitaines Donau et le Boeuf. Les lieutenants de Pontbriand, Goulon et Tardy, Rapport de M.J. Toutain. Bulletin Archéologique 1903. pp. 272 - 284.

- Roy (B) Documents sur l'expédition de Tripoli en 1209 de l'Hégire (1794) Revue Tunisienne. 1906. pp.283 - 291.

- Breil de Pontbriand-Marzan (Cp) :

* Monnaies puniques, romaines et arabes découvertes à Ben Gardane, Bulletin Archéologique 1899, pp. CXXXV.CLCLI

* Une inscription néo-punique à Zian, Bulletin Archéologique, 1905,pp. CXCI, CCVI.

* Le port de l'antique Gergis et la légende de la rivière d'huile, Bulletin Archéologique 1906. pp 251-252.

- Bernaurd (L.t). le Cheval dans les mosaïques de l'Afrique du Nord. Bulletin Archéologique. 1906. p.6.

- Winkler (A). Justification des rectifications faites sur la table de Peutinger et concernant les distances indiquées entre quelques stations. Revue Tunisienne, 1909. pp. 181-318.

- Bouchard (Lt). la culture de l'olivier dans la région de Zarzis, Bulletin de la Direction de l'Agriculture, Tunis 1910.

- Menouillard (H).

- Une noce à Zarzis, Revue Tunisienne 1905. pp. 3-8.

- Zarzis, Monographie du teritoire des Accara, Bulletin de la Direction de l'Agriculture. Tunis. 1912. pp. 96-121. 150-168.

- Monchicourt (Ch). Episodes de la carrière Tunisienne de Dragut, Revue Tunisienne. 1918. pp. 263-273.

Duval (Cdt La frontière Tuniso-tripolitaine. Revue Tunisienne 1918, pp. 189-197.

- Puaux (G). Une croisière de l'archiduc Louis-Salvator sur les cotes de Tunisie. Revue Tunisienne 1918. p.255.

- Chat (L) Djerba. Histoire et description en 1803. Revue de la section Tunisienne de la Société de Géographie Commerciale et d'Etudes Coloniales. Paris, 1925 - 1926. p.11.

- Douib (Abdelmajid) : La région de Zarzis : I. L'occupation du sol avant 1881. Cahiers de Tunisie N° 23-24-1958.pp. 311-316.
La région de Zarzis. II. Contact européen et exploitation du sol de 1881 à 1959. Cahiers de Tunisie N° 79-80, 1972,pp.171-178.
- Poncet (Jean). La colonisation et l'argriculture européenne en Tunisie depuis 1881. (thèse de doctorat 700p.) Paris 1961. pp. 237 , 407 , 471.
- Martel (André) Les confins Saharo-Tripolitains de la Tunisie (1881-1911). (thèse de doctorat. T.I... 824 p. TII, 428p.) Paris, P.U.F. 1865.
- Dufourcq (Ch-E), l'Espagne catalane et le Magrib aux 13° et 14 ° siècles. (thèse de doctorat,664 p.) Paris. P.U.F. 1966.PP.419.512.536.
- Valensi (lucette). Fellahs tunisiens. L'économie rurale et la vie dans les campagnes aux XVIII et XIX siècles.(Thèse de doctorat. 421p.). Paris 1977. p.84.
- Sethom (Hafedh) et Kassab (Ahmed). Les régions géographiques de la Tunisie. Tunis.1981.pp.172-179.
- Mzabi (Hassouna). La Tunisie du Sud-Est (géographie d'une région fragile. marginale et dépendante). Thèse de doctorat. 960 pages ronéotées. Tunis.1988.

وضعيّة المثقّفين بجرجيس في الفترة الإستعماريّة من خلال بعض ملفّات الأرشيف الوطني

محمد نجيب بوطالب
أستاذ علم الإجتماع

مقدّمة :

اصطبغ التّاريخ الإجتماعي في تونس في الفترات الماضيّة بالصبغة الحضريّة. و حتى الدّراسات التي شملت الأرياف كانت قليلة أو موجّهة بعوامل ذاتيّة وأخر ى موضوعيّة. فطموح البحث العلمي الوطني اليوم هو تغطيّة كل الجهات والمناطق والمواقع والمجموعات التي أسهمت قليلا أو كثيرا في نحت ملامح المجتمع. وقياسا على مقولة بارك "بعض المجتمعات تنقصها الدّراسة والتّحليل"، يمكن القول أنّ مناطق في بلادنا لم يشملها البحث رغم وجود معطيات ومواد قابلة للتنظيم والتّحليل يمكن أن تساهم في إغناء بعض الفرضيات والأطر وحات أو نقضها أو تصحيحها.

إنّ ما نقدّمه هنا هو محاولة متواضعة للملمة موضوع تشتّتت مواده أو كادت تندثر، وتفرّعت عناصره بما يستدعي مراكمة البحث والمقارنة، إنّه محاولة لإظهار تمفصلات التكوين الإجتماعي لفئة إجتماعيّة لعبت دورا هاما وإن بدأ متواضعا في صيرورة تكوين المجتمع التّونسي الحديث. فالمجتمع لا ينمو شتاتا بل تكوّن أنساقا وبنى وظواهر تترابط ترابطا عضويّا رغم ما يبدو من تناثر معطياتها. ويلعب الطّابع البسيط لتقسيم العمل في المجتمع الرّيفي دورا بارزا في إظهار صعوبة الرّبط بين تلك العناصر وأولئك الأفراد وتلك الجماعات التي بدت فاعليتها ضعيفة لكثيرين لما تتّسم به حياتها من إنقسام وهامشيّة.

ولا يتمّ التغلّب على هذه الصعوبات إلاّ بتظافر جهود المختصّين في العلوم الإجتماعيّة، علماء إجتماع ومؤرخين وأنتربولوجيين وأثنوغرافيين، جهود تجمع وتراكم بين التّوثيق والتّحليل والتفسير والمقارنة، وقد تضفي خصوصيّة المجتمع

الرّيفي قبيل الإستقلال على تناول موضـوع الفئـات المتعلّمـة أو المثقفـة طـابع نـدرة المعطيات في ثقافة تغلّب الشفوي على الكتابي من حيث حفظ تاريخ الأفراد خاصّـة إذا تغيّب هؤلاء الأفراد عن الدّارس المعاصر.

وبقدر ما تكون هذه الموضوعات صعبة المراس فتدفع إلى التّردّد في تناولهـا بقدر ما هي بحاجة أيضا إلى جرأة علميّة إنطلاقا مـن المثـل العربـي القـائل : مـا لا يدرك جلّه لا يترك كلّه.

المرجعيّة التعليميّة :

أ - التعليم الزّيتوني :

شأن الجهات التونسية الأخرى، ارتبط المتعلّمون في الجنوب الشـرقي بجـامع الزيتونة كمركز للإشعاع التعليمي والدّينـي والقضـائي فـي التّـاريخ الحديـث. وسـواء كـانت فئـات الأيمّـة والمؤدّبيـن والعـدول والأمنـاء وغيرهم قد درست وانقطعت أو تخرّجـت بشـهادات ذات قيمـة لشـغل منـاصب التدريس والافتـاء والإمامــة أو تقلّـد مناصب الوظائف الإداريّة أو التحكيميّة، بشكل مباشـر أو غـير مباشـر، عـن طريـق الفروع الزيتونيّة التي نشأت في فترة متأخّرة في بعض المـدن التونسـية، فـإنّ هـؤلاء لعبوا أدوارا هامّة في جهاتهم ومع موطنيهم فساهموا في رفع تعليـم السـكّان أصـول المعاملات والعبادات (1).

وللبحث في دور الفئات المتعلّمة ممـن يمكـن إعتبـارهم متقّفيـن فـي عصـرهـم وفي جهاتهم قبـل أواسـط هـذا القـرن، نتعـرّض فـي هـذه المداخلـة إلـى نمـوذج مـن المتعلّميـن فـي منطقـة جرجيس كجـزء مـن جهـة أقصـى الجنـوب التّونسـي. وتعتمـد دراستنا على جرد في الملفّات الوثائقيّة المحفوظة في الأرشيف الوطني التّونسي.

لا نعد هنا بإمكانيّة تغطيّة كلّ تلك الفئات لصعوبة التعرّض إلى كلّ تفاصيلها، وسنكتفي بالتّعرّض لبعض النماذج الّتـي لـم تكـن مغلقـة بـل تميّزت بحـراك داخلـي وتنقّل بين الوظائف. رغم نقائص الخدمـات التعليميّـة فـي قيـادة الأعـراض وورغمـة بخاصة في القرن 19، فإنّ المنطقة كانت تنتج متقّفيها مـن أشـكال معاناتهـا وأهمّهـا بعد المسـافة عـن مركـز الايالـة. فقد كـانت بعـض العـائلات ترسـل بعض أبناءهـا

إلى تونس للدّراسة في الجامع الأعظم. بل أنّ بعض أبناء المنطقة تمكّنوا من الإنتقال إلى مصر ونفذوا إلى الأزهر رغم قلّتهم. فقد ساعدت التّجارة والحج في تنقّل الأفراد إلى المشرق العربي، ولم ينقطع هذا السلوك من منطقة الجنوب حتى أيّامنا رغم تنوّع أشكاله ومقاصده وهياكله.

كما أسهمت الهجرة المبكّرة من المنطقة إلى المدن الشماليّة في انتقال عناصر من ورغمة إلى جامع الزيتونة منذ وقت قديم وبشكل أقلّ في الصّادقيّة. وتشير الدّراسات إلى أنّ هجرة الأعمال الحرفيّة والخدميّة ظهرت منذ القرن 17 من أقصى الجنوب، وقد شملت البدو المستقرّين أكثر من غيرهم الذين عرفوا الهجرة مع أوائل هذا القرن (2). أمّا الفئات الإجتماعيّة التي لم تكن إمكانياتها ولا علاقاتها تسمح لها بإرسال بعض أبنائها للدّراسة بمدينة تونس فكانت ترسلهم إلى مدارس الزوايا في بعض الأماكن القريبة مثل جربة ونفطة وقابس وجمنة.

ب- التعليم الفرنسي :

رغم وضوح أهداف الإستعمار الفرنسي في تأسيس مدارسه، فقد ساهمت تلك المدارس بالتدريج في القضاء على الأميّة في الأرياف وفي إدخال الطّرق التعليميّة والتّربويّة الحديثة إلى المنطقة. وقد ساهمت من جهة أخرى في توثيق صلة الجنوب التّونسي بالشّمال وبالعالم الخارجي، ولكن هذه المدارس لم تفلح في القضاء على التعليم الدّيني والشعبي الذي ظلّ يمثّل شكلا من أشكال المقاومة والحفاظ على الذّاتية العربيّة الإسلاميّة. ففي جرجيس تمّ تأسيس المدرسة الفرنسيّة للذّكور عام 1896، ثمّ تأسّست عام 1905 مدرسة مختلطة (3).

وفي سنة 1912 كانت المدرستان تضمّان معلّمين أحدهما فرنسي والثاني عربي، أمّا التّلاميذ فيعدّون من الذكور الأوروبيين 5 والعرب 73 واليهود 11. ومن الإناث الأوروبيات 14 والعربيات 2 واليهوديات 10.

ويبدو أنّ المواطنين لم يتفاعلوا مع هذه المدارس، فاقتصر التّسجيل على أبناء الفئات الميسورة أو القريبة من السلطة والموظّفين. وكان المعلّم متحصّلا آنذاك على شهادة البريفي (Brevet) كحدّ أدنى. وكانت وضعيّة هذا الصّنف من المعلّمين أفضل ماديّا من وضعيّة معلّمي الكتاتيب والمدارس القرآنيّة (4).

ولم يكن نمط عيش السكّان المحيطين بالمراكز الناشئة في أواخر القرن يسمح لهم بتسجيل أبنائهم في هذه المدارس. فقد لعبت العوامل الجغرافيّة دورا في تشتّت السكّان والعوامل الإجتماعيّة المتمثّلة في غلبة النمط الرعوي والفلاحي على نشاطات السكّان، والعوامل الثقافيّة المتمثّلة في حرص الأهالي على الحفاظ على الطّابع الدّيني للتعليم والنّفور من التعليم الفرنسي، وهو شكل من أشكال الرّغبة في التّمايز ورفض الإندماج في مؤسّسات المحتلّ.

لكن المدارس القرآنيّة في أقصى الجنوب لم يكن عملها منتظما، لأنّ طابع الحياة البدويّة المتغلّب على الأكثريّة لا يعطي قيمة كبيرة لتعليم الأبناء، لا من حيث الإستمراريّة ولا من حيث العمق والجدوى. هذا ما تؤكّده بعض الوثائق حينما تشير إلى أنّ السكّان الرّيفيين لا يتعاملون بجديّة مع المعطى التّعليمي، بل كثيرا ما يمتنع الأهالي عن دفع أجرة المؤدّبين(5)، وكثيرا ما يتحوّل المعلّم إلى متطوّع فقير يعيش حالة الكفاف.

تقدّم بعض التّقارير والدّراسات أرقاما مغريّة حول أعداد الكتاتيب والمعلّمين والتّلاميذ. لكن التّعمّق في تحليلها ودراسة المجتمع في سياقه التّاريخي سنة 1875 يفيد أن تلك الأرقام لا تتميّز بالدّقة وغير ذات دلالة.

فبتسليط مؤشّر الفاعليّة يتّضح أنّ العمليّة التّعليميّة في الكتاتيب لم تكن منتظمة. ففي نفس السنة قدّر أحد التقارير حول جربة عدد الكتاتيب ب 58 معلّما و1056 تلميذا، تتوزّع إلى 6 زوايا و52 جامعا(6) . صحيح أنّ جربة تميّزت بنمو ديمغرافي ونشاط تجاري وديني معروف ميّزها على بعض المناطق القريبة منها، غير أنّ الظنّ لا يذهب بنا إلى المطابقة بين مفهوم المدرسة الدينيّة ومفهوم المدرسة المدنيّة العصريّة من حيث التّنظيم والكفاءة والمنضوين في كلّ منهما. فوجود تلك الأعداد الهامّة نسبيّا لم يمنع من تحوّل الجزء الغالب منها إلى صفوف الأميّة والإنقطاع المبكّر وتلاشي المعلومات المتلقّات لأسباب إجتماعيّة واقتصاديّة بالأساس.

بجردنا لقوائم طلبة جامع الزيتونة سنة 1862 في عهد محمد الصّادق باي(7) كان عدد المسجّلين يبلغ 445 طالبا من المرشّحين للتّحرير من أداء الضريبة. وبالبحث فيها عن أصيلي منطقة ورغمة إتّضح أنّهم لا يتجاوزون في الحدّ الأقصى 20 طالبا، وذلك من خلال الألقاب. ولا شكّ أنّ أغلب هؤلاء كان مقيما مع عائلته بالعاصمة بسبب هجرة مبكّرة، دائمة أو مؤقّتة. كما أن أصيلي جزيرة جربة يمثّلون أغلب هذا العدد.

وهكذا يمكن القول أنّ الصّعوبات التي فرضتها المسافة البعيدة بين منطقة أقصى الجنوب الشّرقي ومكان الجامع الأعظم، وخضوع هذا الأخير إلى تقسيم روّاده إلى بلديّة وبرّانيّة، فلم يتمكّن "الآفاقيون" من الإندماج في الوسط المديني ولا التّعليمي بسهولة. فقد لا يتعدّى عدد المرسمين آنذاك من جرجيس وبن قردان ومدنين سوى طالبا واحدا من كلّ منطقة منها، وثلاثة طلاّب من كلّ من تطّاوين وغمراسن، باعتبار أنّ هاتين المنطقتين، شأن جربة تقريبا، عرفتا الهجرة المبكّرة وخاصّة عند سكّان الجبال والمستقرّين. وعلى كلّ حال فالعدد عموما يبقى ضئيلا.

ومع توطّد أقدام الإستعمار الفرنسي للبلاد، أخذ عدد الطّلبة المسجّلين في المنطقة في الجامع الأعظم في التطوّر حيث تأمّنت عمليات الذّهاب من المنطقة والعودة إليها. ولكن ذلك لم يكن خاليّا من ظاهرة الإنقطاع، للإستقرار والعمل في بعض الأعمال الحرّة التي عرف أهل الجنوب بممارستها في الحاضرة، وذاك شأن القليل منهم، أمّا الغالبيّة فكان أهلها في أشدّ الحاجة إليها للقيام بالوظائف الدّينيّة والتعليميّة في المناطق. أمّا الذين كانوا ينهون تعليمهم فقد تقلّدوا وظائف القضاء والعدالة.

أمّا المدرسة الصّادقيّة التي أسّسها المصلح خير الدّين قبيل الإحتلال فلم تكن تضمّ في صفوفها تلاميذا من أقصى الجنوب إلاّ مع تقدّم السنوات وتوسّع أقسامها. فضلّت المؤسّسة الزيتونيّة تشكّل القطب الجاذب لأبناء الأرياف والمدن.

وضعيّة الأيمّة في جوامع جرَجيس :

يجد دارس الوثائق التي تتضمّنها ملفّات الأرشيف حول جوامع المنطقة صورة حيّة للحياة الإجتماعيّة والإقتصاديّة والثقافيّة بأرياف الجنوب التّونسي. معطيات عديدة ومتنوّعة تغطّي مختلف المراحل التي تعود لها تلك الوثائق. وفي المنطقة تمدّنا المراسلات ووثائق الإنتخاب والبطاقات الأرشاديّة والشّكاوي والتقارير بمادّة غزيرة قادرة على تكوين لمحة لتاريخ الحياة اليوميّة متكاملة.

ففي ملفّات جامع جرجيس، وما تسمّيه الوثائق ب"جامع الحصار" (8) المعروف بأقدميّته، نجد وثائق تعود إلى أواسط القرن الماضي على الأقلّ، بها خرائط وجذاذات ووصولات تتعلّق بعمليّات التّخطيط والإصلاح والتّرميم التي تعرّض لها هذا الجامع. كما تفيدنا تلك الملفّات بصورة واقعيّة عن الوضعيّة الإجتماعيّة للأيمّة والقائمين على شؤون المساجد من إمامة وتدريس وافتاء في بعض الأحيان.

فما ميّز هؤلاء، أوضاعهم الماديّة المتردّية، فهي لم تكن بمثل أوضاع بعض الفئات الأخرى من المتعلّمين من العدول والأمناء، أو من الموظّفين الذين باشروا وظائف الإدارة في المحاكم أو في البلديّة (9)، أو في مركز الشّؤون الأهليّة. فقد ظلّ الشّأن المادي للإمام في الأرياف شأنا أهليّا في أغلب الأحيان يرعاه الأهالي ويتبرعون له ببعض المساعدات العينيّة، أمّا الأجر فكان زهيدا ومتقطّعا، لا يقيم الأود ولا يضمن لصاحبه الإستمرار في مهامه إن لم يكن الإستمرار في الحياة.

ويمكن التمييز في الأوضاع الماديّة للأيمّة بحسب تركّز الجوامع في مراكز عمرانيّة أو بحسب إشعاع وأقدميّة المعلّم الديني، فضعف الإشعاع وطابع البساطة الذي ميّز التديّن الريفي لم يطورا هذه المعالم باستثناء بعض الزوايا التي كانت تمثّل نقاط استقطاب في الجهة لكلّ القبائل المحيطة بها.

إنّ البعد عن مركز الحكم في أواخر القرن الماضي وبدايات القرن الحالي جعل الجهات النائيّة تبحث عن حلول لمشاكلها، فقد كانت الرّواتب المصروفة من قبل جمعيّة الأوقاف لا تصل إلى أصحابها في الجوامع المعروفة، وإذا حالفها الحظّ

في طريق الوصول فإنّها تصل منقوصة ومتقطّعة أو متباعدة. أمّا المساجد الصّغيرة التي تسيّرها مجموعات محليّة في بعض القرى فكانت لا ترتبط من حيث التمويل بالإدارة المركزيّة (10). أمّا الإرتباط الرّوحي والثّقافي بالمركز فقد كان موجودا طوال مراحل التّاريخ الإسلامي في المغرب العربي. وهذا ما أكّده "جلنر E.Gellner" الذي عرف بدراسته "لصلحاء الأطلس" بالمغرب، حينما أشار بذكاء ومعرفة إلى أن خاصيّة " الهامشيّة" التي أطلقت على قبائل الأطراف في المغرب العربي لا تعني بالضرورة انقطاع الصّلاة الثقافيّة والرّوحيّة مع مركز الإنتاج الدّيني والثّقافي في كلّ منطقة، وذلك شأن العالم الإسلامي وخاصيّته، رغم ضعف الحكم المركزي في بعض الفترات ورغم التمرّدات العديدة (11).

وجدت حالات قليلة كان فيها المترشّحون للإمامة في مناطقهم أغنياء أو متوسّطي حال (12)، فقد كان المردود المادّي ثانويّا لهؤلاء، بل أنّ الهام بالنسبة لبعض الأفراد والمجموعات الحصول على تدعيم إجتماعي يشدّ مكانتهم ويعلّي شأنهم. ولم تكن تخفي على أحد قيمة ذاك الرأسمال الرمزي الذي سيكون المتحصّل عليه مؤهلا للحصول على رساميل أخرى. إنّ التحليل الإجتماعي يقود إلى هذا الإفتراض الذي نراه مدعّما بحالات عديدة احتكرت الجاه والمال، رغم ما يمكن أن يكتنف هذا التّحليل من مزالق المحاسبة على النيات.

ومن خصائص الإمامة في المنطقة أنّها كانت تورث في أغلب الأحيان. وكثيرا ما يكون التوريث العرفي جاريا لهذه المناصب، وقد تكون التجربة العائليّة المتوارثة مؤشّرا معتمدا في الفصل بين المترشّحين (13).

وكانت لبعض الجوامع أحباس جلّها زياتين، أغلبها لصالح جامع جرجيس حيث بلغ عددها 1129 شجرة و15 نخلة كانت تبرّعت بها بعض العائلات منذ أواخر القرن 19 (14). ورغم وجود تلك الأوقاف فإنّ مداخيلها تذهب إلى جمعيّة الأوقاف، وقليل منها يمنح لبعض الأيمّة والمؤدّبين. ولا توظّف في التّرميم والتعهّد كما هو الشّأن في جهات أخرى.

لقد كان المجتمع المحلّي يواصل بناء مؤسّساته رغم تواضع الإمكانيات وضعف التنظيم بعيدا عن تهاون الإدارة المركزيّة وتدخل الإستعمار واحتكاراته.

وتمتاز جرجيس بطبيعتها المعتدلة نسبيّا بما مكّن من تطوّر الفلاحة، فالسكّان منشغلون في الغالب بالأشغال الفلاحيّة، خاصّة حينما بدأوا يقلّدون المعمرين في استعمال الطّرق الفلاحيّة العصريّة وخاصّة في غراسة غابات الزّياتين. وقد يكون هذا العامل سببا في تفسير عدم رغبة الأهالي من المؤهّلين في التقدّم لملء بعض المراكز الشاغرة في الجوامع أو كثرة التغيّب والإنقطاع للمباشرين خاصّة أنّهم كثيرا ما اعتمدو ا على أيمّة من خارج المنطقة (15).

وبتطوّر التعليم واتّساع فروع التّعليم الزيتوني في الجهات إزداد عدد المتحصّلين على شهادات التّطويع، وأدّى ذلك إلى تنوّع الوظائف الإداريّة التي لم تعد مجالا يستقطب المتعلّمين من خارج المنطقة، فقد تقلّد أصيلو جرجيس مناصب الإفتاء في الجهة ومنصب الكاهية المرتبط بقيادة ورغمة وأعمال العدالة والكتابة بين الأهالي أو في البلديّة ولدى المحكمة الشّرعيّة وفروعها. وكان ذلك قد أدّى إلى حراك وظيفي واضح خلق متنفّسا للمتعلّمين خاصّة مع بداية الثلاثينات (16).

مع نشأة الحركة الوطنيّة المنظّمة في العشرينات بدأ إنخراط الأيمّة يتّخذ شكلا تصاعديّا شأن الفئات الأخرى. فلم يعودوا معزولين عن بعض النشاطات السّياسيّة، فقد كان بعضهم يؤدّي مهام سريّة إلى درجة يمكن القول فيها أنّ الجوامع كانت تشكّل نقاط إتّصال وحركيّة بين المقاومين، وخاصّة في الجنوب حيث المنطقة عسكريّة، هذا عدا دورها الثّقافي الوطني الذي كان عبّر عنه جاك بيرك بشكل أوسع وبوضوح في تحليله لأشكال مقاومة الإستعمار في الجزائر. وفي جرجيس، شأن الجوامع الجنوبيّة المشعّة الأخرى آنذاك، ظهر أيمّة لم ينسجموا من بعيد ولا من قريب مع السلط الإستعماريّة المحليّة والجهويّة، كما فعل بعض وكلاء زوايا الطّرق الدينيّة أدّى عدم الإنسجام ذاك إلى ظهور إجراءات عقابيّة عديدة تراوحت بين الحبس والإقالة واالإبعاد(17).

الأمناء والعدول :

لا يمكننا في هذا المجال التعمّق في استعراض وتحليل الجوانب المتعلّقة بهذه المهن في المنطقة. فالعدول لوحدهم يمكن أن يكونوا موضوعا لدراسة معمّقة، نظرا لأقدميّة المهنة وكثرة عددهم واختراقهم لكلّ مجالات الحياة الإجتماعيّة والإقتصاديّة والثقافيّة.

كان العدل يعتبر خزينة قومه وسجل حياتهم اليوميّة وضابط شؤونهم. وفي الدفتر (4065) نجد جداول أسماء العدول في سائر أماكن البلاد من (1851 - 1904) (18) تقريبا. وكان العدول يتمتّعون بالمقارنة مع غيرهم ببعض الإمتيازات، فهم يجمعون بين الصّفات المدنيّة والدينيّة، وتلتصق أعمالهم بالحياة اليوميّة الإقتصاديّة والإجتماعيّة والرّوحيّة للأهالي، ممّا مكّنهم من تحسين مداخيلهم. ونعتقد أنّ إختلاف مواقع تواجد العدول في البلاد التونسيّة من الرّيف إلى الباديّة إلى المدينة لم يؤثّر على التمييز بينهم في مستويات الدّخل. أوّلا لأنّ العدل محكوم كوظيفة بتشريعات مركزيّة ممّا يجعل الأوضاع متماثلة وقد لا يتحوّل ضعف الكثافة السكّانيّة والنشاط الإقتصادي في البوادي إلى سبب في ضعف مردوديّة العدل الرّيفي،لأنّ مناطق تواجدهم لا تنتدب عددا كبيرا من العدول، أو الأمناء الفلاحيين، من جهة، ولأنّ اعتماد الأعراف المحليّة والطّابع البدوي المتّسم بسخاء الأهالي وطبيعة معاملة الريفيين لهم، كان كل ذلك يعدل الكفة الماديّة للعدل، فضلا عن تنوّع أنشطتهم واتّساع مجالات تدخلهم أمّا الأمناء وبتنوّع اختصاصاتهم من أبناء معاش وأمناء فلاحة وأمناء وزن وأمناء حرف فإنّ تعيينهم لا يخضع في كلّ الأحيان إلى شروط ثقافيّة وتعليميّة، وكثيرا ما كان الشّرط الأساسي الخبرة ومعرفة مجال النّشاط وقد يلحق ذلك بشروط الأمانة والنّضج. لكن الشّرط التعليمي كان مفضّلا. ولهذا كثيرا ما يمرّ المتعلّمون بهذه المهنة. وإذا كانت خطط العدالة تتّصف بطابع ديني تحكيمي فإنّ خطط الأمانة تتّصف بالطّابع الدّفاعي الحمائي للمهنة أو الصنعة. ولذلك فإنّ حالات العزل والإقالة في صفوف الأمانة كانت أكثر حضورا منها في صفوف العدول.

إنّ ضعف الإحتكام في انتداب الأمناء إلى المستوى التّعليمي لم يمنع من ظهور أمناء في جرجيس كانوا متطوّعين من الجامع الأعظم (19).

فمعرفة القراءة والكتابة باللّغة العربيّة ثمّ بالفرنسيّة أيضا، والتزوّد بمعلومات في الجوانب الفقهيّة والإقتصاديّة والقانونيّة أمور محبّذة على الإدارة، مع بدايات القرن 20 خاصّة. وأصبحت مناظرات الإنتداب تعطي أهميّة لهذا الجانب بعد أن كان الإنتداب في السابق يخضع إلى شروط أخرى كالخبرة والثقة والجاه.

رغم استمرار إستحسان هذه الشّروط عرفيّا، فإنّ شروط أخرى بدأت تتدخّل كالموقف السياسي والعلاقات بالسّلطة لم يكن تعيين الأمناء شأنا أهليّا داخليّا. لقد كانت السّياسة الإستعماريّة ذكيّة في التدرّج بالإستحواذ على الهياكل والمؤسّسات، ومن الطّبيعي أن تبدأ بما يتعلّق بالجوانب المدنيّة وبالحياة الإقتصاديّة كالتّعليم والتّجارة والفلاحة، ولم تتدخّل كثيرا في شؤون المساجد إلاّ بما يجلب لها الإستحسان والرّضا كالتدخّل للترميم والتّوسيع.

لم تتخلّف السلط المحليّة عن التدخّل المباشر في تعيين الأمناء أو عزلهم، رغم انقسام الأهالي في بعض الحالات حول بعض الأمناء منذ أواخر القرن 19، فتضطرّ أحيانا إلى الإستنجاد بأمين من خارج المنطقة (20) فيما يتعلّق بأمناء المعاش. وفي هذا المجال يمكن التمييز بين أمناء المعاش وأمناء الفلاحة، فالأوّلون كانوا أكثر عرضة للمشاكل بينما حظيّ الثانون بقيمة إجتماعيّة وبسمعة طيبة.

ورغم سهولة وضع السلطة يدها على الأمناء في الأسواق، فإنّ البغض منهم كان يتمرّد على قراراتها ويثير لها المتاعب (21)، وكان البعض الآخر من أمناء الفلاحة يتعرّض إلى عقوبات نتيجة مقاومته للتوسّع اليهودي في التملّك بجرجيس وخاصّة فيما يتعلّق بالقضايا العقاريّة التي تعرض على أمناء الفلاحة (22). أمّا ظاهرة توارث المهنة فرغم أنّ بعضا من هذه المهن لم تكن موجودة قديما شأن مهنة العدالة ووظيفة الإمامة، فإنّ العرف يقضي بتقبّل الأبناء حينما يكون آباؤهم من ذوي التّجربة والخبرة (23).

مجالات أخرى للدّراسة :

رغم حداثة عهدها، فإنّ دراسة ملفّا ت الجمعيّات تمدّنا بمعطيات هامّة حول واقع وتطوّر المثقّف في الجنوب الشّرقي وفي جرجيس تحديدا. فالأفراد

المتطوّعون لتسيير هذه الجمعيّات كانوا من نخبة المنطقة المتواجدين بمدنهم وقراهم أو المتواجدين في العاصمة.

لقد كان الوعي الوطني واشتداد عود المنظمات والأحزاب عاملا مركزيّا في نشأة وتطوّر الخلايا التي نشأت في مختلف الجهات والأرياف. وكانت نشأة الجمعيّة الخيريّة الإسلاميّة بجرجيس سنة 1944 والإتحاد المدرسي لورغمة بتونس في نفس الفترة، والإتّحاد الرّياضي بجرجيس مع مطلع الخمسينات(24)، وغيرها من النّوادي والشّعب السياسيّة والثقافيّة الدّور الأساسي في إحداث نقلة نوعيّة في الوعي والممارسة الإجتماعيين. ويمكن للدّارس التعمّق في مجال لا يقلّ أهميّة، وهو ذو عراقة وإيغال في التّاريخ وهو مجال أرشيف الزّوايا والطّرق (25) ويتطلّب هذا الأمر عملا ميدانيّا هائلا وعلاقات واسعة لاستمرار إحتفاظ العائلات بهذه الوثائق.

ويبقى الجانب الأهم والمنيع البكر دراسة فئات أخرى لم تكن بمنأى عن الثقافة والتعليم، وقد لعبت أدوارا هامّة في مناطقها، إنّه الجانب الوثائقي الضخم المتعلّق بملفّات القياد والخليفات والمشايخ(26) وغيرهم ممن تولّوا مناصب إداريّة وسياسيّة، كما يمكن جرد وثائق الإدارة الإستعماريّة من التعرّف على بعض جوانب العلاقة بين المتعلّمين والإدارة العسكريّة في المنطقة.

الهوامش

(1) في رسالة من أهالي غمراسن إلى الوزير الأكبر نجد ما يلي : "(نطلب) منحنا إعانة لمدرّس يعلم صغارنا أمور دينهم ويصلح ألسنتهم بالعربيّة، هؤلاء الذين لا يجدون إليها سبيلا لبعد المسافة والفقر، وينقذ كبارنا من ظلمات الجهل". الأرشيف الوطني – سلسلة أ – خزانة 65 – ملف 11 (1925).

(2) أنظر دراستنا ببيت الحكمة ضمن (وحدة البحث في تاريخ الفئات الشعبيّة) (بصدد الطّبع) أنجز 1990. وهي بعنوان : "هجرة العمل من قبيلة ورغمة إلى مدينة تونس من 1881 إلى 1950".

Martel (A) : Les confins saharo- tripolitains de la Tunisie. T.II, p.81.P.U.F.
(3) 1965.

(4) مارتال : نفس المرجع، ص 82. يذكر أنّ المعاش السنوي للمعلّم كان يتراوح بين 1200 و 3000 فرنك، فضلا عن امتيازات العاملين منهم في المناطق النائيّة بمنحة إضافيّة ومسكن.

(5) رغم أنّ هذا المبلغ كان زهيدا (ريال واحد للطّفل الواحد شهريّا)

(6) Chebbi (H) : Notices et chiffres sur l'enseignement élémentaire en lieu traditionnel Tunisien. C.A.T.P. 1984.P.77.

(7) الأرشيف الوطني : سلسلة د – خزانة 64 – ملف 746

خزانة 63 – ملف 737

(8) ظهرت بعض مطالب إصلاحه منذ 1897 حيث كانت النتيجة ممثّلة في ملف الخرائط ومصاريف التّرميم والتّعهّد وقرارات البناء من جديد في 1899. أنظر : سلسلة –د– خزانة 34 – ملف 6.

(9) تأسّست بلديّة جرجيس سنة 1889 وكان رئيسها وأعظائها الثمانيّة تونسيين.

الأرشيف الوطني : دفتر 3957.

(10) كان أمام جامع جرجيس محمد بن الحاج السوفي لا يحصل على راتبه إلاّ متأخرا، وتوجد مراسلات وشكاوي إلى الوزير الأكبر وإلى رئيس جمعيّة الأوقاف في هذا الشّأن. ففي وثيقة تعود إلى 1881 أشار إلى أنه ظلّ ثلاث سنوات لا يحصل على أجرته إلى درجة جعلته يتوقّف عن عمله.

(11) Ernest Gellner : Système tribal et changement social en Afrique du Nord, in Ann. Maroc. Eco. et Socio, 1969 .pp..3-19.

(12) رغم أنّ محمد الجزيري العكّاري المفتي بجرجيس كان يحصل على 150 ريال، وهو مبلغ ذو شأن مقارنة بأمثاله، فقد كان كثير التغيّب بما يجعله ينقطع. أمّا الإمام محمد البغدادي بن بلقاسم بوحافة البوعلي فكان يتشكّى من تأخّر مرتبة، "ودواعي العجز عن دفع معلوم أمر ولايته بسبب الفقر "إذ كان يحصل بشكل متقطّع على100 ريال بينما كا الأمين الفلاحي يحصل على 150 ريالا حوالي 1889، (نفس الملفّات).

(13) من العائلات المعروفة في هذا الشّأن عائلة السوفي حيث أن سعد بن الحاج السوفي عوّض أباه في العشرينات وقبله كان جدّه.

(14) في سنة 1898 نجد بعض الجنائن توقّف عددا من رؤوس زيتونها لصالح الجامع ومنها : جنان لبيض بن شويخة 36، جنان بو حافة 6، جنان العودي 31 وجنان بن عاشور 17.

الأرشيف الوطني : سلسلة –د– خزانة 34، ملف6.

(15) في الأربعينات كان أمام جامع القرييص إبراهيم بن عمر الجباهي الحويري (أصيل بني خداش)، وكان الأهالي يتحمّلون مصاريف مرتّبه. الأرشيف الوطني : خزانة 34، ملف 4. وقبل ذلك (1930) نعثر على رسالة من أعيان جرجيس إلى الوزير الأكبر بو حاجب تؤكّد " أنّ إمام وخطيب الجامع الكبير بجرجيس والمؤدّب المؤذّن يتقاضون جراية سنويّة على القيام بالوظائف المشار إليها قدرها لجميعهم 500 ف يخصّ الإمام 320 ف والمؤذّن 90ف والمؤدّب 90ف، وهذا القدر زهيد، فتحرّجوا من الضيق ولا يمكن لهم التخلف عن أداء الشعائر ... و يخشى التردّد والإهمال... وإن أهالي القرى حرفتهم الفلاحة، وهذه الحرفة تمنعهم من القيام بواجبهم الدّيني المشار إليه... ولذا نطلب الإذن للجمعيّة تسديد هذا الخلل. " في 22-4-1930. (خزانة 34 - ملف3).

(16) في سنة 1938 كان الحاج امحمد بن سالم بن سعيد الشبلي إماما خطيبا بجامع حسّي الجربي، وكان قبل ذلك تولّى الكتابة في اللجنة البلديّة واستقال منها في أوائل القرن، ثمّ عمل عدلا، وعندما تقدّمت به السنّ تولّى الإمامة.(خ : 33 - م : 4). وكان جامع زاوية محمد بن الصيد بن مصدّق بقصر الوانسة نشيطا، وظهر فيه خلاف بين الإمام والسكّان من جهة وبين، نائب الجمعيّة حول المرتّب.(خ: 34 - م:2).

(17) في دراستنا " المتعلّمون بأقصى الجنوب التونسي، نشاطهم ودورهم" ضمن فريق بحث حول الفئات الوسطى في التّاريخ التونسي، ببيت الحكمة - قرطاج 1992 (بصدد النشر) تعرّضنا إلى نماذج عديدة من أشكال المقاومة في صفوف المتعلّمين ومنهم أيمّة بن قردان وتطّاوين وجرجيس ومدنين.

ففي جرجيس عدّة حالات مقاومة ورفض للسّلطة الإستعماريّة، أشهرها حالة إمام جامع حسّي الجربي (الثلاثينات) حيث لم يكن محمد بن الطيّب الشبلي منسجما مع السّلطات. فقد أدّى الخلاف إلى أقالته لتهمة كتابته لشكايات سكّان جرجيس من تصرّفات السّلطات الفرنسيّة المحليّة حول الوضع الصحّي والمعاشي المتردّي. ونال عقوبة السّجن من جرّاء ذلك، ثمّ نقل نقلة عقوبة إلى جهة قبلّي. وتطلق التقارير الإستعماريّة على هذا الشيخ عبارات مثل "التسبب في الإضطرابات". وبهذا الملف نجد مراسلة تدين السلطات وتتضمّن طلبا ملحّا بإطلاق سراح المساجين بروح عالية ليست فيها تزلف (90 إمضاء). وكانت عمليّة أبعاده قد أثارت احتجاجا محليا واسعا تكوّنت من جرّائها لجان مساندة وإدانة. الأرشيف الوطني : خزانة : 33 ، ملف:4.

(18) أ.د.ت. دفتر 4065. عدول جرجيس والموانسة كانوا يعدّون 20 عدلا في أواخر القرن 19 ومنهم من صار قاضيًا بجرجيس أغلبهم من المكان ما عدا القليل كان من جربة.

(19) كات محمد بن سعد مطيمط الذي انعقد اتّفاق بين الأهالي في شأنه متطوّعا من الجامع الأعظم في سنة 1930، واستمرّ في منصبه حتّى. 1951.وكان أمين معاش بالموانسة.
الأرشيف الوطني : سلسلة ب - خزانة 182 - ملف 27.

(20) في الملف 27 الخاص بأمناء معاش الموانسة انقسم الأهالي وراء مرشحين من المنطقة هما صالح بن المبروك كريدان ومحمد بن أحمد بلهيبة، بينما يرشّح عامل الأعراض شخصا آخر "والذي أراه في الغرض هو أنّ هناك رجلا مسنّا ثقة من أعيان التجّار قاطن بجرجيس وليس من عكّارة يقال له محمد القرقني ذو يسار يصلح للأمانة... فهو وجه حسن دفاع للهزج حيث كان من غير أهل المكان...".

(21) كان بلقاسم بن محمد بوعبورة عرف كليش متمرّدا وتتّهمه التقارير بالبطش والتعدّي على الاخرين واتّهم بأنّه يسب السلطة الفرنسيّة. لا شك أنّ تلك التّصرّفات كانت تخفي معارضة للإستعمار رغم جنينيتها، فذلك يمثّل بدايات الوعي الوطني المقاوم. (ملف 27، سنة 1890).

(22) أرسل محمد بن عبد الغفار قاضي جرجيس سنة 1918 رسالة الى القبطان بورقوان حول شكاية أحد المسلمين بيهودي حول حدّ أقامه اليهودي لأرضه فادّعى المسلم أنّه دخل أرضه، وبيّن أنّ الأمين الفلاحي محمد بن أحمد ذياب (توفي 1925) خينما عاين المشكل تحيّز إلى جانب المدّعي المسلم وأنهى القضيّة، فقرّرت السلطة الإستعماريّة عقاب الأمين. (ملف 29، خزانة 182).

(23) سنة 1903 كان أمين الفلاحة بالموانسة هو مبروك بن الصيد بن مصدّق العكّاري، وكان والده أمينا فلاحيّا قبله. (سلسلة – ب –، خزانة 182، ملف 29).

(24) أنظر الأرشيف الوطني :Séric E - cart . 509.

- الجمعيّة الخيريّة بجرجيس : ملف 386.
- الإتحاد المدرسي لوغمة بتونس : ملف 476.
- الإتحاد الرّياضي بجرجيس : ملف 675.

(25) (سلسلة –د– خزانة 111 ، ملف : 7–8–9–10) القادريّة : سيدي عبد القادر الحمادي بجرجيس، سيدي سعد غميض بجرجيس، سيدي عبد القادر بالموانسة – الرحامنية. (خ : 125 ، م : 1–2–3–4)، زاويّة سيدي الحنيني بجرجيس وسيدي مصدق بالموانسة – العيساويّة (خ 139، م : 1) زاوية جرجيس وزاويّة سيدي عيسى بقصر أولاد امحمد (مقدّمها من أصل جزائري)– السلاميّة (خ : 153، م : 2 –7) زاوية عبد السّلام بالموانسة ، زاوية السويحل.

(26) أنظر الأرشيف الوطني : قيادة ورغمة (سلسلة أ –خزانة 180 –176)

القياد	180	1 - 15 :
الخلفوات	181	1 - 13 :
المشيخات	182	1 - 69 :
المشيخات	178	1 - 20 :
الخلفوات	177	1 - 4 :
القياد	176	1 - 7 :

النسيج القبلي في شبه جزيرة جرجيس :
قراءة نقديّة في بعض الوثائق الفرنسيّة

سالم لبيض
باحث علم اجتماع

مقدّمة :

يعود الإهتمام بهذه المنطقة من الجنوب التونسي إلى سببين :

– السّبب الأول : معرفي يتمثّل في ضرورة الإطّلاع على التاريخ الإجتماعي لمنطقة جرجيس لمعرفة جماعات لم تكتب تاريخها نظرا لطبيعتها البدويّة الغالبة وعدم إستقرارها إلى فترات زمانيّة ليست بالبعيدة، حتى أن مهمّة الباحث تكاد تكون مستحيلة لأنّ هذه الجماعات وصفت بأنّها منعدمة التاريخ والحضارة وهو ما نريد تفنيده.

– السّبب الثاني : علمي أكاديمي : يتمفصل مع السّبب الأوّل، فمن وجهة نظر الباحثين الشبّان، تعتبر مناطق أقصى الجنوب التونسي غير محظوظة لأنّ الدّراسات التي إهتمت بهذه المنطقة جدّ محدودة العدد، ومازالت هذه المناطق تشكّل مجالا خصبا للقيام ببحوث علميّة، وبطبيعة الحال فإنّ أي منطقة لا تنال حظّها من الدّراسة والبحث، ستبقى منقوصة الحظوظ فيما يتعلّق بالمشاريع التنمويّة و إزالة مظاهر التخلّف الإقتصادي والإجتماعي والثقافي، ذلك أن العلم أساس تقدّم الشعوب والأمم.

كما أن إختيار عنوان هذا البحث ***"النسيج القبلي في شبه جزيرة جرجيس : قراءة نقديّة في بعض الوثائق الفرنسيّة"*** يقوم على ضرورة الإستفادة من هذا الكم الهائل من الوثائق والمعلومات التي من المؤكّد أنّها كانت نتاج لخلفيّة إستعماريّة ولكن لولا هذه الوثائق لكنّا جماعات وشعوب بلا ذاكرة، نظرا إلى أنّ ذاكرتنا هي ما دوّنه وكتبه هذا الضابط الفرنسي – المؤرّخ، والسوسيولوجي، والإثنولوجي، والإثنوغرافي، والجغرافي والأركيولوجي ... الخ. ولم يكن الأمر ناتجا عن رغبة ذاتيّة لأنّ كلّ الأعمال الفرنسيّة كانت منظمة بنصّ قانوني صادر عن الإقامة العامة بتونس في 13 أكتوبر * 1883 يجبر كل ظابط يقيم في قرية أو في ريف أو قبيلة أو مدينة على إعداد دراسة حول المنطقة التي يعمل بها. ثمّ أصبحت هذه الدّراسة

التي يعدّها الضباط الفرنسيون تنشر في مجلّة –Revue Tunisienne– وهي الدّوريّة التي يصدرها معهد قرطاج سنويّا، وهو المعهد الذي أنشأ لغرض القيام بدراسات علميّة حول مختلف مناطق البلاد التونسيّة وذلك ضمن إستراتيجية إستعماريّة محددّة سلفا.

إنّ الأمر الأكثر أهميّة بالنسبة إلى أي باحث هو إعادة قراءة هذا الكم الهائل من الوثائق الفرنسيّة للإستفادة منها وإعطائها أبعادها العلميّة رغم الوظيفة الأيديولوجيّة الإستعماريّة التي لعبتها في كثير من الأحيان.

إحتلال جرجيس وتقييم الموقف :

1) القوات الفرنسيّة تحتلّ جرجيس : يمكن إعتبار إحتلال جرجيس مدخلا لعمليّة عسكريّة واسعة النّطاق، قامت بها القوات الفرنسيّة في 28 جويلية 1881 أرادت من خلالها إحتلال مناطق أقصى الجنوب التّونسي بعد سقوط كلّ من صفاقس وقابس حيث ظهرت حركة مقاومة كبيرة بقيادة "علي بن خليفة النفّاتي" عامل لعراض السابق الذي كان يحرّض ويجمع القبائل وخاصّة بعد سقوط القيروان وهي المدينة ذات الرمز الديني الكبير. فما هي دلالات عمليّة إحتلال جرجيس ؟ أو بصفة أخرى كيف أراد ضبّاط الإدارة العسكريّة الفرنسيّة تصوير عمليّة الإحتلال ؟

لقد إحتلت القوات الفرنسيّة في البداية جزيرة جربة، ورغم النّداء الذي وجّهه قاضي " الخزور" لأهالي جربة " لصيانة الدّين والتأهب لمقابلة أعداء الله في محاولة منه لإثارة المقدّس الدّيني، فإنّ عمليّة الإحتلال قد تمت دون مقاومة تذكر(1) وذلك باتفاق مع خليفة الجزيرة وأعيانها "الذين إختاروا النظام الفرنسي ورفضوا فوضى البدو" على حدّ تعبير مارتال المؤرّخ الفرنسي، الذي ذكر في كتابه السالف الذكر أن موفدا على أعيان عكّارة قد وصل إلى قرية "أغير" بجربة يؤمّن دخول الفرنسيين إلى جرجيس بدون مقاومة من الأهالي (2) وقد ورد في دراسة "Notices sur les Akkaras" للضابط "Bailly" أن موقف عكّارة قد تحدّد في الوقت الذي كانت فيه مدينة صفاقس تدكّ ممّا جعل علي بن خليفة يدعو قبائل الجنوب للدّفاع عن المصالح الإسلاميّة من خلال إيفاد مبعوثين لهذه القبائل (3). وقد إرتأى خليفة جرجيس "سي رحومة بلهيبة" حسب نفس الوثيقة ضرورة التأني في البداية

نظرا إلى أن الباي لم يقم بتشجيع القبائل " المتمرّدة"، وهو ما جعل الضابط "Bailly" يعمل على إظهار الموقف على أن الصّراع "المحتمل" لم يعد بين قبيلة عكّارة والفرنسيين وإنّما بين أهالي جرجيس " وثوّار ورغمة" الذين جاءوا لمقاتلة الغزاة (4). لقد أصبحت قبيلة عكّارة حسب هذا التمشي إلى جانب الفرنسيين خاصّة بعد أن قام قائد السفينة الحربيّة "Léopard" بزيارة إلى جرجيس دامت قرابة السّاعة. ثمّ إصطحب على إثرها الخليفة والقاضي والمفتي ورئيس المرسى إلى جزيرة جربة، لتقديم طلب قبيلة عكّارة إلى قائد الفرقة العسكريّة بعدم دخول أي فرقة عسكريّة فرنسيّة إلى جرجيس. ولكن هذا الطلب حسب الضّابط الفرنسي ، يردّ إلى رغبة في تجنب شرّ "المتمرّدين" وهي الخدعة(Stratagème) (التي نسج خيوطها " سي رحومة" مع العسكريين الفرنسيين) لكي ينعم عكّارة بالسلم والأمن، وهو مالم يتحقّق نتيجة تحرّشات ورغمة مما جعل البعض من عكار ة يقترح في إجتماع للقبيلة – ضرورة حمل الأمتعة على المراكب (Les flouques) والإتّجاه إلى جمع الشمل مع إخوة عكّارة الطرابلسيين، لكن هذا الحلّ لم يكن الأنجع، فقد كان مقترح الضابط الفرنسي الموجود في الإجتماع والدّاعي إلى عقد إتّفاقيّة بين أهالي جرجيس والسلطات الفرنسيّة هو الحل العملي من أجل حمايتهم من الإعتداءات المتكرّرة من طرف قبائل ورغمة و هو ما تمّ على أرض الواقع (5). إنّ " بلاد الخوف" وهي التسميّة التي كانت تطلق على شبه جزيرة جرجيس من طرف القوافل، وعلى عكس بقيّة ورغمة لم تنعم بالأمن، إلا مع مجيء الفرنسيين ويرجع ذلك إلى أنّ أهالي شبه الجزيرة يعتبرون أقلّ حظّ قبل هذا المجيء فقد كانوا يتعرضون إلى هجمات النوايل وزوارة ووريمة من القبائل الليبيّة (6).

2) – **تقييم الموقف من الإحتلال** : لقد أظهرت الوثائق الفرنسيّة " إستسلام قبيلة عكّارة" بصيغة مكثّفة وجماعيّة وهو ما يدعو إلى ضرورة تقييم هذا الموقف.

أ – إنّ تركيز الوثائق الفرنسيّة على إحتلال جرجيس وإظهاره في مظهر الحدث التاريخي الذي له أهميّة قصوى، كان ينبع من الخليفة الإستعماريّة التي أرادت أن تقلل من شأن حركة المقاومة التي إندلعت في كلّ من صفاقس وقابس وهي المناطق التي سبقت مباشرة منطقة جرجيس، في محاولة لإظهار الوجود الفرنسي على أنّه وجود غير مرفوض. كما أن إظهار منطقة جرجيس بصيغة

"الإستسلام " له تأثير إيجابي على القوات العسكريّة الفرنسيّة خاصّة والتوجّه الفرنسي عامّة وذلك في إطار الإستراتجيّة الفرنسيّة التي تهدف لإخضاع قبائل أقصى الجنوب التّونسي وبالتّالي إنهاء حركة المقاومة التي يقودها "علي بن خليفة" .

ب- إنّ الإعلان عن "إستسلام" عكّارة من طرف الفرنسيين يندرج ضمن خطّة القوّات الفرنسيّة بالتّمركز في منطقة جرجيس في إطار الإعداد للتصدّي للفيالق العسكريّة والإستراتجيّة العثمانيّة التي وصلت إلى طرابلس، والتي اعتقد أنّها قادمة لنصرة القبائل الثائرة في الإيالة التونسية (7) خاصّة وأن الحدود لم يقع رسمها بعد في تلك الفترة.

ج- من الإشارات القليلة التي عثرنا عليها والتي تشير إلى ظاهرة المقاومة في جهة جرجيس، ما أورده الفرنسي "Volard (E)" في كتابه "L'extrème sud Tunisien" من رفض أهالي جرجيس بيع أراضيهم "للرّومي" أي المعمّرين مما جعل هؤلاء يلجأون إلى أسلوب الإفتكاك، فقد قدّرت الأراضي التي وقع إفتكاكها بأكثر من 20 ألف هكتار ، وقد علّق " Volard" على هذه العمليّة قائلا "لقد كان على المعمّرين أن يتحلّوا بكثير من العناد والجلد والصّبر كي ينغرسوا في جهة أظهرت لهم عدائها منذ البداية" (8).

د- ذهبت بعض الدّراسات التي تناولت أقصى الجنوب التّونسي بالبحث إلى تبنّي الموقف الفرنسي -كما ورد في الأعمال الأولى للفرنسيين- والذي يعمد إلى تقديم قبيلة عكّارة وكأنّها قبيلة "مستسلمة"، ممّا جعل كلاّ من مرتال والمرزوقي وليسير (9) يذهبون إلى أن الموقف لم يكن شخصيّا لخليفة جرجيس وأعيانها وإنّما هو الرأي السّائد لدى ميعاد عكّارة الموسّسة القبليّة التي لها صلوحيّة أخذ القرارت، وهو ما يدعو إلى مزيد من إستنطاق النصوص التي تناولت هذه المسألة.

1) إنّ الجزم بأنّ جهة جرجيس لم تشهد حركة مقاومة ضد قوّات الإحتلال الفرنسي إبّان الفترة الأولى غير ممكن، نظرا إلى أنّ أشكال المقاومة متعدّدة وترتقي من البسيط إلى المعقد، فمن الممكن ظهور أشكال رفض أوليّة كما أشار إلى ذلك "Volard" ولكن ليس بالهين بالنّسبة لجهة مثل جرجيس أن تشهد حركة مقاومة عنيفة ومسلّحة نتيجة عدّة عوامل :

الضّعف في الكثافة الدّيموغرافيّة، فقد كانت قبيلة عكّارة أقلّ قبائل أقصى الجنوب التونسي عددا، وتوزّع أفرادها حسب التّعداد الذي قام به الضّابط "Bailly" في سنة 1887 كالآتي : 1644 رجل، 1700 مرأة 1529 فتى، 1617 فتاة. بينما تعدّ قبيلة الودارنة أكثر 15000 نسمة بين 1881 - 1887 وهي القبيلة المفجّرة لأحداث 1915، وتزيد قبيلتي الخزور والتّوازين على 15 ألف نسمة.

- الفضاء الجغرافي في جهة جرجيس والذي يتركّب أساسا من السّهول، حيث تنعدم الجبال ماعدا بعض الهضاب، والذي يحول دون تفجّر حركة مقاومة عنيفة.

2) إنّ قبيلة عكّارة ليست قبيلة بدويّة، فهي من القبائل المستقرّة التي لا تستطيع ترك مواقعها، على عكس التوازين الذين هاجروا من منطقة مدنين إلى جنوب وادي فيسي على الحدود الليبيّة، تحت ضغط القوات الفرنسيّة، أو الودارنة الذين تركوا مواقعهم في منطقة تطاوين وإنتقلوا إبان ثورة 1915 إلى الأراضي الليبيّة. فقد لوحظ إبّان عمليّة الإحتلال الأولى عدم إشتراك السكّان الحضر والمستقرين في إندلاع ثورات القبائل، وإن الإستثناء الوحيد على ذلك هو إندلاع حركة مقاومة في مدينتي قابس وصفاقس، وهو ما يفسّره الأستاذ المؤرّخ "محمد الهادي الشّريف" بتطابق مصالح البدو مع الوجهاء والأعيان سواء من خلال عقود المغارسة بالنسبة لملكيّة الزياتين في جهة صفاقس، أو ملكيّة الواحات في منطقة قابس، حيث يعتبر "علي بن خليفة"** قائد المقاومة في كلّ من صفاقس وقابس من كبار الملاك (10). وفي مراسلة بين عامل لعراض حيدر باشا آغا والوزير الأكبر يعلمه بأن القبائل الثائرة مع علي بن خليفة هي : عرش نفات، عروش بني زيد، عرش الحمارنة، بوشمى، شنني، الزارات، وذرف، جبل توجان (11). وهي عروش وقبائل يغلب عليها الإنتماء البدوي. ويمكن إرجاع إقتصار المقاومة على البدو إلى عاملين :

أ- عامل داخلي يتعلّق بالطبيعة البدويّة نفسها أي بالقيم التي يتربى عليها البدوي والتي تقوم على عدم الخضوع للأجنبي ومقاومته باعتباره كافرا (12).

ب- عامل خارجي يتمثّل في خضوع السكّان المستقرين للسّلطة المركزيّة فقد كان موقف خليفة جرجيس مطابقا لموقف الباي مـن التدخّل الفرنسي ومعلوم أن الخليفة هو أعلى سلطة ممثّلة للباي في الجهة، في حين كان البدو يتعاملون بحذر كبير مع نفس السلطة، بل أنّ علاقتهم مع البايات كانت متوتّرة إنطلاقا مـن رفضهم للشرعيّة ولا أدلّ على ذلك من إنتفاضات 1864 و 1906 و 1915.

3) إنّ مناقشة صورة خليفة جرجيس في الوثائق الفرنسيّة تبدو ضروريّة. فكيف أظهرت الوثائق الفرنسيّة شخصيّة رحومة بلهيبة خليفة جرجيس ؟ - هو خليفة جرجيس منذ جمادي الثّاني 1296 هـ (1880 م) ويبلغ من العمر 46 سنة، حسن البنيان الجسدي، جيّد الحركة، ذكي إلى درجة الفطنة، كثير الفعل والعمل، يتكلّم بسهولة، حسن المظهر، يستمع إلى مخاطبيه بدون مقاطعة، ويملك المقدرة والكفاءة على إيجاد الحلول للمشاكل التي تعترضه، جسّد إرادة عكّارة والخطّ الذي أرادوه أثناء فترة التّمرّد وله قدرة فائقة على إدارة شؤون قبيلته، مع تعدّد أساليبه واستيعاب وتجاوز كلّ أعمال الإبتزاز التي مورست ضدّه، وهو ما يعني أنّ له مقدرة على هزم أعدائه. كان خليفة جرجيس قليل الثراء في بداية خلافته ثم تحصّل على ثروات بمهارة كبيرة - يعتبر "سي رحومة" خليفة جرجيس من الأشخاص المستثاق بهم ومن غير الممكن أن يتحوّل إلى إنسان خطير، ولهذه الأسباب تحصّل على النيشان في سنة 1883 ووسام "La croix de commandeur" في جويلية 1884. وأصبح عاملا على قيادة منطقة مدنين المحدثة سنة 1895 ثمّ عاملا على منطقة لعراض (قابس) (13).

- هذه الصّفات والخصال -تقريبا- هي أهمّ ما قيل في "خليفة جرجيس" سنة 1881 في أغلب الوثائق التي إهتّمت بالمنطقة - لا سيما تقارير المخابرات الفرنسيّة- وهي المعلومات الأصليّة المعتمد عليها والتي لم تتعامل تعاملا عاديّا مع شخصيّة الخليفة السالف الذّكر وإنّما وقع تضخيمها إلى درجة أن القارئ يلاحظ الطّابع الكاريزمي، ذلك ما تبرزه الصّفات والخصال التي لا تظهر من بينها صفة سلبيّة واحدة. وممّا لا شكّ فيه أن الطّابع الكاريزمي لا يتجسّد في شخص يقوم بمهام إداريّة كما هو الحال لخليفة جرجيس وإنّما في زعيم سياسي، وهي المهمّة الجديدة التي أنيطت بعهدته بعد مجيء الفرنسيين وخاصّة بعد الدّور الإيجابي الذي

لعبه في المفاوضات مع "المتمرّدين" من ورغمة والذي نجح في إبعادهم عن جرجيس، وكذلك في دور المفاوضات الذي كلّفه به خليفة لعراض "يوسف الليقرو" إلى درجة أنّ قبيلة عكّارة أصبحت تتجسّد في شخصيّة خليفتها. وممّا تجدر الإشارة إليه هو أن إحدى الوثائق المخزونة في خزينة الوثائق الحكوميّة التّونسيّة، تشير إلى أنّ قبيلة عكّارة تعتبر من أضعف القبائل في أقصى الجنوب التّونسي، وبعد أن كان المقترح إقامة قيادة (عمل) في جرجيس، وقع تحويل المقرّ إلى مدنين سنة 1895(14) مع تعيين خليفة جرجيس وتلبية رغباته، رغم قناعة الفرنسيين بأنّ الزمردة الصّغيرة "La petite Emeraude" أي جرجيس هي عاصمة أقصى الجنوب التّونسي كما جاء في مؤلف "Volard". كما أنّ تضخيم صورة خليفة جرجيس قائمة على خلفيّة إستعماريّة الغاية منها البحث عن رجال للمرحلة الجديدة، أي المرحلة الكلونيالية التي تتطلّب قادة رأي عام جدد وربّما كان الخليفة "رحومة بلهيبة" من أبرزهم. كما أن نفس الخلفيّة قامت بإبراز هذه الشخصيّة، في إطار الإعلان عن إستسلام المنطقة بعد المواجهة العنيفة التي شهدتها صفاقس وقابس ودواخل البلاد خاصّة في الجنوب التّونسي (15). وبالرّغم من ذلك فإنّ قراءة ما وراء السّطور في الوثائق الفرنسيّة وهي الوثائق الوحيدة التي كتبت تاريخ المنطقة الحديث والمعاصر، قد تكون مفيدة (16) خاصّة تلك التي تشير ولو باقتضاب وضبابيّة إلى أعداء "الخليفة بلهيبة" من قبيلة عكّارة الذي من الممكن أن يكون له تأثير كبير في مؤسّسة الميعاد وبصفة خاصّة إستقطاب الأعيان إلى رأيه مثال "سي محمد بلقاسم كليش" رئيس المرسى و"حسن بن مصدّق" القاضي و"محمد الجزيري العكّاري" المفتي بجرجيس. ولكن لا يستبعد أن يوجد مناهضون لموقف الخليفة مّمن خارج مؤسّسة الميعاد، ذلك أن الإستعمار الفرنسي في جرجيس لا يتعامل مع منطقة خاليّة من المتعلّمين، وإنّما كانت توجد فئة العدول والأئمّة وهي فئة إجتماعيّة من خريجي جامع الزّيتونة، توفّر لها من الزاد الفكري والدّيني خاصّة ما يدفعها إلى رفض دخول المستعمر الأجنبي "الرّومي" "النصراني" حفاظا على ديار الإسلام من التدنيس، وهي الشّعرات التي رفعت في القيروان عندما وقع إحتلالها، ورفعها كذلك علي بن خليفة وقادة ثورة الودارنة 1915 مثل أبناء عبد اللّطيف الدّبابي والشّيخ عمر الأبيض شيخ قبيلة الكراشوة في منطقة تطّاوين.

البناء القبلي لعكّارة :

الأصول الإجتماعيّة والتّاريخيّة : لئن إختلفت المصادر الفرنسيّة في تحديد الأصول الإجتماعيّة والتّاريخيّة لقبيلة عكّارة بصفة عامّة فقد إتّفقت في الحدّ الأدنى وهو ما سنحاول التوقّف عنده.

1) **قبيلة عكّارة : جزء من ورغمة** : لقد كان إهتمام الفرنسيين بقبيلة عكّارة جزء من إهتمام أوسع وأشمل من حيث الدّراسة والبحث واضعا تحت الضوء ما وقع تسميته " باتحاديّة ورغمة". أي مجموعة قبائل أقصى الجنوب التّونسي بما فيها قبيلة عكّارة، ورغم إستعمال كلمة "ورغمة" كتسميّة لهذه القبائل إلاّ أنّنا لم نعثر على تفسير للفظ ورغمة باستثناء إشارة عابرة للضّابط "Le Boeuf"، تفسير مصطلح ورغمة بذريّة غمّة دون الإشارة إلى مصدر هذا التفسير (17) إلاّ أن هذه التسميّة هي الشائعة لدى قبائل الجنوب التّونسي وكذلك لدى القبائل المجاورة والسلطة المركزيّة (18) وتشكّل ورغمة إتّحادا قبليّا، نشأ في المنطقة الجنوبيّة الشرقيّة (جنوب وادي الزاس). وما أصبح متعارفا عليه في أغلب الكتابات هو تسميّة المنطقة ب"كنفدراليّة ورغمة" حيث يذهب البعض إلى وجود أربع جمهوريات بربريّة في أقصى الجنوب عند وصول الفرنسيين إلى المنطقة (19) ومنهم من إعتبرها دولة ورغمة حيث يقول "Berthelon" لقد وجدنا بين قابس وليبيا ما يشبه دولة بربريّة تعيش شبه إستقلال(20) ولا يوجد إتّفاق بين الباحثين فيما يتعلّق بالقبائل المسمّاة بورغمة، فهي حسب "Le Boeuf" الخزور، الودارنة، التّوازين، عكّارة، الجليدات، وهي خمس قبائل (21) بينما يصنّف مارتي (Marty) ستة قبائل تحت إسم ورغمة وهي عكّارة، التّوازين، الخزور، غمراسن، الجليدات، الودارنة، بالإضافة إلى مجموعات صغيرة وهي المهبل والتمارة بمنطقة مدنين والمخالبة والطّرايفة والذهيبات في جنوب تطّاوين. وحسب مارتال تتكوّن ورغمة من أربع قبائل، الخزور، التوازين، عكّارة والودارنة (22) ونفس التّصنيف ورد في الكتاب الذي أصدرته الحكومة التونسيّة حول القبائل بعنوان "Nomenclature et répartition des tribus de la Tunisie." . ولئن ظهر إختلاف بين الباحثين في تحديد القبائل التي تنتمي إلى إتّحاد ورغمة، فقد وقع إتّفاق بينهم على أنّ هذه القبيلة الكبرى ترجع إلى أصول "بربريّة". إلاّ أنّه تجدر الملاحظة إلى أن الباحثين الفرنسيين لم يطلقوا هذه التسميّة كنتيجة لبحث إجتماعي علمي وموضوعي، بل إنّ الخلفيّة الإستعماريّة

أرادت إبراز ثنائيّة عرب/بربر، وهي ثنائيّة تهدف إلى التقسيم من خلال إصطناع الكائن البربري كما يقول الباحث السوسيولوجي المغربي عبد الصمد الديالمي (23) "عن طريق لهجة خاصّة أو لهجات، وعرف مستقل عن الشّرع الإسلامي، وتنظيم إجتماعي سياسي بدائي، وطبعا كان وما يزال لإختلاف الكائن البربري إنعكاس على المستوى السيكولوجي فالبربري يرمز إلى الطيبوبة البدائيّة وإلى الشّجاعة والإخلاص، وإلى حب العمل، إنّه الخير في كلمة واحدة على خلاف الشر العربي/ الإسلامي"، وتؤدّي الأسطورة البربريّة إلى إدراك العرب والإسلام كقوى إستعماريّة تسلّطت على السكّان الأصليين، فقد كتب "Moulieras (A)" كتابا بعنوان "Le Zkara : une tribu Znéte anti-musulmane au Maroc" وحاول أن يبرز فيه إستعمار العرب الغزاة للبرابرة بل أكثر من ذلك أسلمتهم بالقوّة.

ويعتقد "Menouillard" وهو كاتب فرنسي، في مقال بعنوان "Une noce à Zarzis" نشر في "Revue Tunisienne (1905)" " أنّ قبيلة عكّارة تجمعها خصائص كثيرة بقبيلة الزكارة ". المغربيّة ويأخذ كمثال على ذلك ظاهرة "النخ"Danse au cheuveux في مناسبات الإحتفالات والأعراس عند النّساء، ومن ثمّة يصبح الدّفاع عن البربري المضطهد الذي حافظ رغم "الإستعمار الإسلامي" على أصالته واستقلاليته. وقد جاء في تقرير علمي إستعماري فرنسي مايلي " يجب أن نتجنّب أسلمة Islamiser وتعريب البرابرة، وإذا كان من الضّروري أن يتطوّروا فعلينا أن نوجّه تطوّرهم نحو ثقافة أوروبيّة واضحة وليس نحو ثقافة إسلاميّة هرمة". تلخّص هذه الجملة الإستراتيجيّة الفرنسيّة التي عبّر عنها مارتي – وهو محافظ الحكومة الفرنسيّة بتونس – حين حدّد نسبة البربر بأقصى الجنوب التّونسي بأكثر من 72 بالمائة من السكّان يعيشون في جمهوريات بربريّة ديمقراطيّة على حدّ تعبير "Le Boeuf"، وهو ما يبرزه الجدول الموالي :

(24)

الدّوائر الإداريّة	المجموعات القبليّة	الأصول الأثنيّة	عدد السكّان في منتصف الثلاثينات
مدنين	الخزور الحويا بالأساس	بربر	24.875
	المهبل-التمارة ومدنين	عرب	4.972
تطّاوين	غمراسن	بربر مستعربون	9.460
	جباليّة(شنني) دويرات	بربر زناتيون	11.300
	قرماسة		
	الودارنة	عرب وبربرمستعربون	30.606
	4-مخالبة وطرايفة	عرب	
	ذهيبات		
جرجيس	عكّارة	بربر زناتيون	19.108
بنقردان	التوازين	بربر زناتيون	29.224

ولعلّ هذا الجدول يبرز بوضوح الخلفيّة الإيديولوجيّة الإستعماريّة. فالقارئ يلاحظ أنّ السواد الأعظم من السكّان هم من البربر في منتصف الثلاثينات من هذا القرن في حين أنّ الذين يحافظون على التقاليد واللّهجة البربريّة هم أقليّة من السكان يقطنون في جبال تطّاوين (قرماسة، الدويرات وشنني). وقد بيّن إبن خلدون إن هذه الإحالات ليس لها إثباتات علميّة وتاريخيّة منذ أكثر من خمسة قرون قائلا : لقد أدّى إختلاط العروش وإحتكاك القبائل بعضها ببعض إلى تناسي النّسب الأوّل بطول الزّمان، وبذهاب أهل العلم به، فخفي على الأكثر وما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخرين (25).

تشير بعض الرّوايات الشفويّة إلى أنّ أصول ورغمة تعود إلى القرن الخامس عشر المسيحي عندما وصل الشّريف الإدريسي " موسى بن عبد اللّه" إلى أقصى الجنوب التونسي قادما من السّاقية الحمراء بجنوب المغرب واستقرّ بغمراسن (حمدون) مصحوبا بعدد من إخوته (26). والغرض من إستقرار "موسى بن عبد اللّه" في هذه الرّبوع هو إعادة نشر الإسلام لدى قبائل البربر التي تناست فتنها وقامت بتجديد إسم ورغمة تحت إمرته (27). وتصف التّقاليد الشفويّة كذلك

كيف إقتسم إخوة "موسى بن عبد اللّه " المنطقة بعد وفاته وأصبح كلّ واحد منهم الجدّ المؤسّس لقبيلة من قبائل ورغمة (28). ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ الولي "سيدي الصيّاح العكرمي".-وهو ما سنتعرّض له بأكثر إطناب فيما بعد - وكذلك الولي "سيدي مخلوف المهبولي" جدّ قبيلة "المهبل" لم يكونا ضمن مجموعة "موسى بن عبد اللّه وإخوته" وإنّما إلتحقا بالمنطقة بعد مجموعة "الأشراف الأدراسة الأولى" وهو ما يدعو إلى إعادة طرح الأسئلة حول بعض المواقف التي يعتقد أنّها من البديهيات في الوثائق الفرنسيّة خاصّة.

إنّ إنتماء قبيلة عكّارة إلى إتحاديّة ورغمة هو موقف إجرائي استعمل لأغراض إداريّة وسياسيّة وقد عبّر عنه أغلب الباحثين الفرنسيين دون سابق دراسة معمّقة وجادّة ويرجع ذلك إلى الأسباب التّاليّة :

أ- لا تتحدّث الوثائق الفرنسيّة عن جدّ عكّارة "سيدي الصيّاح" باعتباره أحد المرابطين السبع (موسى بن عبد اللّه وإخوته أو أبنائه) وهم الغبنتني التوزني، الجليدي، الغمراسني ، الحويوي، الودرني، التّرهوني، وإنّما قدم إلى منطقة ورغمة في فترة لاحقة صحبة الولي سيدي "مخلوف المهبولي" وقد تكون هناك قرابة بين الإثنين أو على الأقلّ كانا ينتميان إلى فضاء إجتماعي واحد، ذلك أنّ محاولة مقارنة خصوصيّات كلّ من "عكّارة" و "المهبل" تفضي إلى تشابه كبير فكلّ قبيلة قد إستقرّ جدّها في شبه جزيرة جرجيس بالنّسبة إلىعكّارة وشبه جزيرة قرين بالنسبة للمهبل، وكان إختصاص كلا القبيلتين في النّشاط البحري، وفي غراسة الزّيتون على المستوى الإقتصادي كما أنّ كلا القبيلتين قد شهدتا الإستقرار على مستوى مبكر، لكن لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هذه الملاحظات الأخيرة هي مجرّد فرضيات يمكن تأكيدها أو نفيها في عمليّة بحث أوسع وأعمق.

ب- لا تتحدّث الوثائق الفرنسيّة عن علاقة حميميّة أو تواصليّة بين قبيلة عكّارة وبقيّة قبائل أقصى الجنوب الورغمية باعتبار أنّ نظرة قبائل ورغمة وخاصّة مسنّيهم تحتوي على نوع من الإحتقار لعكّارة، ذلك ما يشير إليه "فتحي ليسير" في أطروحته "نجع ورغمة تحت الإدارة العسكريّة الفرنسيّة" بعد إستجواب قام به مع مسنّي منطقة تطّاوين سنة 1988، رغم إشارة "Martel" إلى أنّ قبيلتي

الحوايا والتوازين قد قامتا بخزن المحاصيل من القمح والشّعير في قصر المؤانسة خشية إتلاف القوّات العسكريّة الفرنسيّة بقيادة جامي "وفيلوبار" في جويلية 1882(29).

ج- إنّ إختلاف طفيف يظهر بين عكّارة وقبائل ورغمة في بعض التقاليد والطّقوس : الزواج، الغذاء، اللّباس، النشاطات الإقتصاديّة وهذه المسألة كذلك مازالت في مرحلة الإفتراضات التي تتطلّب التأكيد أو النّفي.

2) **أسطورة الجدّ المؤسّس** : إنّ أسطورة الجدّ المؤسّس لا-تخلو منها أغلب القبائل في المغرب العربي. وعادة ما يرمز الجدّ المؤسّس لدى هذه القبائل إلى المقدّس الديني أي تحويل الجدّ إلى ولي صالح، وقد إرتبط ذلك بمجيء هؤلاء "الأولياء" من السّاقيّة الحمراء جنوب المغرب، ذلك أنّ أغلب القبائل تدّعي انتسابها إلى هذه المنطقة، ففي دراسة بعنوان " مفهوم القبيلة في شمال إفريقيا" توصّل المستشرق الفرنسي "جاك بيرك "Berque" إلى أنّ أكثر من خمسين قبيلة كبرى في المغرب العربي تعتقد في إنتسابها إلى منطقة الساقيّة الحمراء، وهذا الإنتساب يحمل دلالات متعدّدة من بينها أنّ سكّان الساقيّة الحمراء هم من الأشراف الإدارسة الذين يدّعون انتسابهم إلى سلالة الرّسول (ص) والصّحابة وأهل البيت وهو ما يضفي على هجرتهم نوعا من القدسية التي تزداد أهميّة برجوع هؤلاء الأشراف من رحلاتهم إلى الحجاز حيث الأماكن المقدّسة للقيام بفريضة الحج ثم الإستقرار بأحد الأرياف في المغرب العربي. وباعتبار انّ إهتمامنا يتصبّ بصفة خاصّة حول قبيلة عكّارة فإنّ نفس الإعتقاد قد ساد ولا يزال بأنّ الجدّ المؤسّس هو أصيل السّاقيّة الحمراء بجنوب المغرب وهو ما يتطلّب إعادة طرح السّؤال.

لكن قبل التّعرّض إلى هذا الإعتقاد، لا بدّ من الإشارة إلى بعض الوثائق والرّوايات الفرنسيّة وكيفيّة تعاملها مع المسألة. لقد حاول الضّابط الفرنسي "Bailly" تجميع بعض الرّوايات حول أصل قبيلة عكّارة، وبعد الإشارة إلى أن هذه القبيلة تعتبر حديثة الوجود إلى حدّ ما، يذهب إلى أنّ قبيلة عكّارة تنسب إلى جدّين تاريخيين: عبد اللّه الشفار Abdallah ben Djaffar، وجرجيس Gergis .

وكان إستقرار الأوّل أي (عبد اللّه الشفّار) في المنطقة بعد أن إستقرّ بها قائده أي جرجيس Gergis التي أصبحت المنطقة تسمى باسمه، ومن المحتمل -حسب الرّواية الشفويّة المتواترة - أن يكون "جرجيس" قد قتل في بداية الإحتلال الإسباني لمنطقة جرجيس بعد مقاومة كبيرة جدّت على إثر تحويل المدن الساحليّة إلى مستعمرات إسبانيّة في سنة 1540 (30). إلاّ أنّه من المفارقات التّاريخيّة أنّ إسم جرجيس "Gergis" كان يطلق على المدينة الرّومانيّة التي توجد في نفس الواحات وهو ما يدعو للتّساؤل. كما أن إسم "عبد الشفار" لم يتحدّث عنه أحد من الباحثين غير Bailly الذي يشكّ بدوره في صدق الرّوايات التّاريخيّة التي تذهب إلى أن "Djaffar" وهو أحد الأسماء البارزة في فترة إنتصاب جرجيس بالمنطقة، ومن الأسباب التي تدفع إلى مزيد من الشكّ والتحرّي هو أن إسم "عبد اللّه الشفّار" لم يرد في أي مرجع آخر تناول تاريخ المنطقة بالبحث ويمكن الإشارة إلى أن تاريخ المنطقة إلى حدود ظهور الأتراك في تونس في سنة 1573 كان غامضا فلا نجد سوى إشارات عابرة حول مرور العرب الهلاليين من منطقة جرجيس الذين "قاموا بعمليّة إجلاء للسكّان الأصليين بعد أن دمّروا مساكنهم" (31) وقد وردت هذه الفكرة دون إشارة إلى حالات عينيّة أو تفاصيل ويرجع ذلك إلى أنّ الدّراسات الفرنسيّة تنظر إلى مجيء الهلاليين على أنّه إستعمار عربي إسلامي أخذ طابعا بربريا، وقد جاء الفرنسيون لمواصلة الخطّ المنقطع مع الحضارة البزنطيّة والرّومانيّة، ويبرز ذلك خاصّة في مؤلّفات Marty و Le Boeuf وضمن هذه الإشارة العابرة نجد أنّ إحدى القبائل الليبيّة وتسمّى العاليا "El Alia" قد حاولت الإستقرار في المنطقة ولكن طردت منها من طرف النوايل الذين إستقرّوا في منطقة سيدي شمّاخ منذ 1767 ميلادي(32) واتّجهت قبيلة العاليا إلى منطقة الزّارات حيث إستقرّت هناك (33).

يمكن إذن وبعد التطرّق إلى جملة الفرضيات حول جدّ عكّارة قبل مجيء مرابطي السّاقيّة الحمراء إلى المنطقة أن نتعرّض إلى إستقرار الولي "سيدي الصياح" في المنطقة والذي يوجد ضريحه في منطقة بنقردان إلى الآن ورغم المحاولات الكثيرة التي ظهرت في الوثائق الفرنسيّة لمعرفة حقيقة هذا الولي سواء فيما يتعلّق بالفترة التي قدم فيها إلى شبه جزيرة جرجيس أو ما يخصّ علاقته بقبيلة عكّارة، فإنّ متفحّص هذه الوثائق يلاحظ خلطا كبيرا فمن حيث التسميّة نجد في "Historique de l'annexe des affaires indigènes de Zarzis": " سيدي خليفي النصياح"

وهي نفس التّسميّة التي وردت في أطروحة "Marty" مع إعتبار أن هذا الولي هو جدّ كلّ إتّحاديّة ورغمة، وهو ما ينبئ بجهل، بينما نجد كلّ من مارتال والضّابط " Bailly" يشتركان في تسميّة "سيدي الصيّاح العكرمي" حيث يرجع هذا الأخير إلى قبيلة العكارمة مع إشارة إلى إستحالة التفريق بين القادمين من السّاقيّة الحمراء والسكّان الأصليين، إلاّ أن سوء التّعبير عن كلمة عكارمة قد حوّل نطق الكلمة إلى "Akkra" "عكّارة" الذين هم من سلالة "الصيّاح" (34) لكن رغم وجود قبيلة تحمل إسم العكارمة مستقرّة في منطقة قصر قفصة تدّعي نسبتها إلى العائلة الشّريفة والتي تنحدر كالآتي : سيدي عمر بن عبد الجواد بن علي بن جلال بن أبي القاسم بن هلال بن هلال بن شنام بن هلال بن عكرمة بن أحمد بن علي بن أحمد بن عكرمة بن خالد بن إبراهيم بن منصور بن علي بن محمد بن ثابت بن نبان بن محمد بن علي بن عبد الواحد بن سالم بن محمد بن عمر بن أحمد بن عبد المجيد بن يحي بن عمر بن يوسف بن حيدر بن حيدرة بن علي بن خالد بن عبد الرّحمان بن عبد الجوّاد بن علي بن محمد بن إبراهيم بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه (ص) (35). إلاّ أنّ بعض الوثائق التي تتضمّن النّسب النّبوي (36) لم تحتو لا كلمة عكرمة ولا عكارمة بل إنّه لا يوجد إسم إبراهيم من بين أسماء أبناء إدريس الأصغر الذين هم محمّد وأحمد وعبد اللّه وعمران وعيسى وداود ويحي وأبو القاسم وحمزة وعلي وعمر. وقد تحدّثت بعض المصادر عن نسب "سيدي الصيّاح" جدّ عكّارة كالآتي : هو سيدي الصيّاح الشّريف المغربي بن خليف بن محمد بن النّاصر بن منصور بن يعقوب بن منصور بن عامر بن عبد الرّحمان بن عبد اللّه بن أحمد بن صالح بن الغالب بن عبد اللّه الشّريف بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد اللّه بن محمد بن الحسن بن علي إبن أبي طالب وأمّه فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه (ص) وقد هاجر إدريس الأكبر جدّ "سيدي الصيّاح" إلى بلاد المغرب خوفا من تنكيل الأسرة الأمويّة الحاكمة باعتباره من أهل البيت وتزوّج من كنزة بنت عبد الحميد (في رواية أخرى عبد المجيد) الأربي سلطان بلاد البربر الذي سلّمه الإمارة بعد أن عرف أنّه "من سلالة الرّسول (ص) فأنجب إبنه إدريس الأصغر الذي تنحدر منه سلالة سيدي الصيّاح والذي له أخوان وهما "سيدي أحمد لصيفر" و "سيدي المبروك بوزيد" كما أنّ للوليّ سيدي الصيّاح خمسة أبناء، وهم سعيد ومحمد وعيسى (ومن المرّجح أن يكون عيسى هو أبو علي) حسب الرّواية الشّفويّة وذلك نظرا لتواتر

تسميّة عيسى لدى أولاد بوعلي الأوائل ولدى عكّارة عموما (37). أمّا إبناه الآخران هما تميم والمرابط سيدي كمّون الموجود بالكحالية وبالنسبة إلىمصطلح عكّارة فهو مصطلح قديم فقد ورد في وثيقة شجرة ورد العساويّة وهي طريقة صوفيّة إسم شخص يدعى منصور بن عبد الرحمان العكّاري المغربي وترجع هذه الوثيقة إلى سنة 1163هـ أي حوالي ثلاثمئة سنة (38) وهو ما يدلّ على أن عكّارة هي التسميّة المصاحبة لظهور أبناء الصيّاح بمنطقة جرجيس، وفي الوقت نفسه توجد مؤشّرات على أنّ قبيلة عكّارة لم يكن لها وجود في منطقة جرجيس وباب عكّارة في بن غشير بطرابلس ليبيا فقط وإنّما يطلق عليه في الدّفاتر الجبائيّة لدولة البايات "بطياش عكّارة" (39) وهي التسميّة التي تطلق على الأجانب الذين إستقرّوا بالساحل والوطن القبلي ومنطقة بنزرت هم أقرب إلى السكّان الأصليين منه إلى "الطيّاش" نظرا إلى أنّه يوجد في الوثائق ما يدلّ على أنّ "لطياش" عكّارة بالدّخلة وهي التّسميّة الواردة في دفاتر الجباية هي في الأصل "دخلة المعاويين" حيث يوجد منزل "تميم" الذي ورد في وثائق شجرة الصيّاح أنّه أحد أبنائه الخمسة، وليس الثلاثة كما يعتقد أهالي جرجيس، كما أن أرشيف وثائق أملاك الدّولة التّونسيّة يحتوي على وثائق أراضي محبسة على زاويّة سيدي الصيّاح الموجودة قرب بلدة بن قردان بجهة المنستير والدّخلة ومنطقة بنزرت. وما يلاحظ من خلال تفحّص ودراسة هذه الوثائق هو تواتر لقب العكّاري وهو ما يرمز إلى أن ظهور الألقاب لم يأخذ الصبغة العائليّة بصفة نهائيّة وإنّما مازالت القبيلة تحضر في تحديد ألقاب الناس كما تدلّ على ذلك دفاتر الجباية المسجّلة في منتصف القرن التاسع عشر (1855م) تحديدا. كما تدلّ هذه الوثائق على أن "طياش عكّارة" وهم أجادب ساطنين بشبه جزيرة جرجيس يعتبر عددهم كبيرا، وربّما إندماجهم مع العروش بجرجيس هو الذي جعل سكّان هذه المنطقة يطلق عليهم إسم عكّارة، فمن حيث الإصطلاح يفسّر إبن منظور القفصي في كتابه "لسان العرب" كلمة عكّار وعكرو أعتكم بمعنى واحد وتعاكر القوم : إختلطو واعتكروا في الحرب واختلطوا، واعتكر اللّيل إشتدّ سواده، إختلط والتبس، والعكر بمعنى الإزدحام والكثرة واعتكار الضرائر أي إختلاطها، واعتكر المطر إشتدّ وكثر، واعتكرت الرّيح جاءت بالغبار معكرة، وقيل العكرة الكثيرة في الإبل، والعكر كذلك هو الأصل (40) فالمعنى الغالب هو الإندماج والتّواصل أي التّعكر، ورغم أنّ تسميّة عكّارة هي تسميّة قديمة تعود إلى ظهور الولي "سيدي الصيّاح" بشبه جزيرة جرجيس فإنّ التفسير الإصطلاحي يحمل دلالة تارخيّة كبيرة

تقوم على أساس التعدّد القبلي في قبيلة عكّارة وإن سرعة إندماج الأجنبي من القبائل الأخرى أي الطيّاش حسب التسميّة التقليديّة (الدليل على ذلك: مثلا تعدّد دفاتر جباية طيّاش عكّارة في العروش الآتي ذكرها : أولاد شبل، أولاد نوير، وريمة، زواغة، مارغنة، الغويات، ماقوره النفافة، الأعواد ، والبريكات، الشبايرة، خويلد، الزواشرية الشياب، العويرات، العجلات، الزغيوات) (41). ورغم هذا العدد الكبير من "الطيّاش" فإنّ هذه العروش والتسميات قد أصبحت جزءا لا يتجزّء من النّسيج الإجتماعي والتّاريخي لقبيلة عكّارة وقد يكون من العوامل التي أظهرت كلمة عكّارة في جهة جرجيس هو الإندماج والتعكر السريع الذي وقع ولا يزال بين عروش جرجيس الأصليين وبقيّة العروش الملتحقة بهم.

3) **توزيع العروش** : بادىء ذي بدىء لا بدّ من الإشارة إلى أنّ الدّراسات الفرنسيّة بقدر ما إتّفقت على أن بداية إستقرار قبيلة عكّارة في شبه جزيرة جرجيس يعود إلى نهاية القرن السادس عشر المسيحي بظهور جدّهم ومرافقيه بهذه المنطقة، فإنّ العديد من هذه الدّراسات قد أشارت إلى أن فصيلة (Fraction) من هذه القبيلة قد هاجرت شرقا إلى طرابلس في نهاية القرن الثامن عشر أين إستقرّت بصفة نهائيّة(42). غير أنّه يوجد من ذهب إلى تأويل الهجرة بطريقة ثانية إذ أنّ Volard يعتبر أنّ قبيلة عكّارة قد هاجرت أراضيها في شبه جزيرة جرجيس إلى شرق طرابلس حيث إستقرّت هناك حوالي 50 سنة قبل أن تعود إلى جرجيس في حوالي سنة 1760 تحت حماية علي باي (43) عن طريق تشييد البرج الحسيني للإحتماء به ضدّ هجمات زوارة والنوايل وريمّة "رقدالين" (44). وبالإضافة إلى ذلك فقد كان عكّارة في صفّ الحسينية ممّا جعلهم محلّ تحرش القبائل التي إتّبعت صف شدّاد خاصّة منها العلايا، الحزم، بني زيد ومطماطة. ويسود إعتقاد مفاده أنّ قبيلة عكّارة تنقسم إلى ستّة عروش تعود إلى سلالة "سيدي الصيّاح" ومرافقيه. بالنّسبة إلى العروش التي تنحدر من سلالة الصيّاح فهي : أولاد سعيد، أولاد محمد، أولاد بوعلي :

الجدّ	الأبناء	العرش	الجدّ	العرش
الصيّاح	سعيد	أولاد سعيد	عبد الدائم	الزاوية
	محمد	أولاد محمد		أولاد عبد الدايم
	بو علي	أولاد بو علي		
		مؤانسة	خليف	الخلايفة

أمّا العروش التي تنحدر من مرافقي "سيدي الصيّاح" وهما "سيدي عبد الدّائم" و"سيدي خليف" أي الزّاويّة وأولاد عبد الدايم، الخلايفة. أمّا عروش المؤانسة فقد جاؤوا إلى شبه الجزيرة مع بقيّة عروش عكّارة حيث إندمجوا في نسيجهم القبلي وأصبحوا جزءا منهم وحسب نفس الوثائق الفرنسيّة فإن قبّة سيدي الصيّاح التي توجد قرب بلدة بن قردان تحتوي بالإضافة إلى ضريح الجدّ المؤسّس للقبيلة، أضرحة الأبناء هم سعيد ومحمد وبو علي أمّا قبّة سيدي عبد الدّايم فتكاد تتحوّل إلى آثار (1887) وتوجد قرب قصر بن قردان ولا تبعد قبّة سيدي خليف سوى بعض مئات الأمتار على نفس القصر وبالإضافة للعروش الستّة التي تتكوّن منهم قبيلة عكّارة فقد إستقرّ في واحات جرجيس عرشان آخران أصبحا يتمتّعان بتنظيم إداري صحبة بقيّة عروش عكّارة وهما "شواشين عكّارة" و "عرش الطيّاش" وتنقسم عروش عكّارة بدورها إلى لحمات (Sous fraction) كما يشير إلى ذلك الجدول في الصفحة الموالية.

أمّا طيّاش عكّارة فينحدرون كالآتي :

1) خويلد من أصل ليبي طرابلسي " ينتسبون إلى قبيلة وريمة في رقدلين" دخلوا جرجيس في (1852) تقريبا.

2) البريكات : عرش زاويّة كثير من أفراد هذا العرش قد هاجروا إلى الشّمال، يوجد ضريح جدّهم الذي يدعى "العودي" قرب بنقردان.

3) ماقورا Zouaves : يقومون بمهمّة حراسة البرج في جرجيس.

4) أولاد نوير : عملوا في جهاز المخزن للحفاظ على الأمن ومراقبة الحدود مع ليبيا.

– من الملاحظات التي يبدو من الضروري التعرّض لها :

1) بقدر ما حاول البحّاثة الفرنسيون الوصول إلى حقائق تاريخيّة إنطلاقا من تجميعهم لمعلومات تتعلّق بالبنية القبليّة لعكّارة فإنّ ثغرات وأخطاء قد برزت في بعض الكتابات من بينها عدم ذكر لحمات أخرى تنتمي إلى عرش أولاد بو علي مثل "السرايبية، والشّهيوات، الخنسة) واقتصار عرش أولاد سعيد علي (لحمتين) بينما هذا العرش هو أكبر من ذلك بكثير، بالإضافة إلى نسبة الجليدي إلى "الخلايفة" في حين أن هذا الإسم يوجد بمنطقة تطّاوين، وأولاد الحاج الذين ينتمون إلى أولاد بو علي وليس إلى الخلايفة.

العرش	اللحمات	العرش	اللحمات	العرش	اللحمات	العرش	اللحمات
أولاد بوعلي	--الزمامطة --اللهايبة --المشاركية --أولاد الحاج --العبايرية --الشويخات --النطاطحة --الحيف --الهنود	أولاد سعيد	El Melcha - --التويسات	أولاد محمّد	--العبشة --الصيودة --الفيني --الحدادة	طياش عكّارة	--خويلد --أولاد شبل --البريكات --مارغنة --أولاد نوير --ماقورة
		المؤانسة	--الهلة --الشنادة --العتايقة --القريرات والعواوجة	الخلايفة	--الدزيري --بن سليم --الجليدي --أولاد الحاج --القمودي	شواشي عكّارة	--دواهشية --طراطرية --المواكير --العكّاري
		الزاوية وأولاد عبد الكريم	--أولاد عبد الكريم --الحوافي --الصيايحة				

2) إنّ أخطاء كثيرة قد وردت في وثيقة "Nomenclature et répartition des tributs de Tunisie" حيث نجد علـى سبيل المثـال أولاد بـو علـي يتكونـون مـن البريكـات، والدواهشية والطراطريّة، والطوالبية والكوزيـر والعبابريّـة والهنـود والشـويخات والنتاتشة والزمامطة إلخ ..(45).

3) إنّ أغلب أولياء وأجداد عروش عكّارة توجد أضرحتهم في منطقة بن قـردان، وربّما يعود ذلك إلـى أن هـذه المنطقـة بالإضافة إلـى كونهـا ممـرّ للقوافل التّجاريّـة والمسافرين فهي مكان للصّراع والتناحر بين القبائل والإعتداءات المتواصلة.

خاتمة :

إنّ إعادة إثارة إشكاليّة الإنتماء والأصول من خلال ممارسـة التنقيـب والحفـر في الوثائق الفرنسيّة التي تصدّت بالبحث في الظّـاهرة القبليّـة، لا يهـدف إلـى تجديد الإنتماء الى الفضاء القبلي باعتباره فضاء تقليدي، وليست الغاية منـه إعـادة تكريـس الولاء القبلي باعتباره يشكّل أرضيّة للنزاعات ذات الطّابع العرقي والدّيني والجهـوي، إنّ مهمّـة البـاحث أسـمى مـن ذلـك بكثـير، نظـرا للطبيعـة المعرفيّـة التـي أصبحـت ضروريّة في مجتمع إنساني مقبل على القرن الواحد والعشـرين، حيث أنّـه لا مكانـة إلاّ للعلـم والمعرفـة ولا مكانـة كذلـك للكيانـات الإجتماعيّـة والسّياسـية والإقتصاديّـة القزميّة، فلعلّ إعادة قراءة أسـاليب المعرفـة التـي إعتمدهـا الإسـتعمار الفرنسـي فـي أواخر القرن التاسع عشر تفيد مجتمعات العالم الثالث في بداية الألفيّة الثالثة.

سالم لبيض

جرجيس 11 أوت 1993

الهوامش

*) أنظر مجلّة "وثائق" الصّادرة عن المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية عدد 16 سنة 1992 ص11.

1)- Martel (A) : Les Confins saharo-triplitains de la Tunisie 1881-1911 Paris, 1965.

2) لم نعثر على تأكيد لهذه المعلومات التي أوردها مرتال في الدّراسة الهامّة التي قام بها الضابط النقيب بايلي " Bailly" بعنوان Notice sur les Accaras سنة 1887 والتي تعتبر المصدر الرّئيسي لكلّ الدّراسات الفرنسيّة التي تناولت هذه القبيلة بالبحث.

3) Bailly : Notice sur les accaras Novembre 1887 p. 19 المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة تونس المنار.

4) إختلفت المصادر الفرنسيّة في تحديد عدد فرسان ورغمة فقد قدّر العدد في الدّراسة السّابقة بحوالي800 ص 19، بينما كان عددهم حوالي 1000 حسب :

Historique de l'annexe des affaires indigènes de Zarzis, Bourg 1931 p. 9

5) Notice sur les akkaras : مرجع سابق ص - 20-27.

6) نفس المرجع، ص 26.

7) إنّ الغرض الحقيقي من مجيء هذه القوّات هو السيطرة على قبائل طرابلس الغرب المشاغبة أنظر:

تشايجي (عبد الرّحمان) : المسألة التّونسيّة في السياسة العثمانيّة ترجمة عبد الجليل التميمي دار الكتب الشرقية 1973 ص 151.

8) Volard (E) : L'extrême sud Tunisien : Tunis la rapide 1905 - pp. 53-54

9) مرتال : مرجع سابق ص ص 248 - 249.

- المرزوقي (محمد) : صرآع مع الحماية، دار الكتب الشرقيّة - تونس 1973 ص 104.

- ليسير (فتحي) : نجع ورغمة تحت الإدارة العسكرّة الفرنسيّة، أطروحة تعمّق في البحث كليّة العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة، تونس ص. 199.

**) يفسّر موقف عكّارة الرافض لمبادرة علي بن خليفة ودعوته القبائل لمقاومة الإستعمار سنة 1881 بدور هذا الأخير -عامل الأعراض سابقا- في الحملة التي قادها سنة 1868 ضدّ قبيلة عكّارة وافتكاكه لعدد من الماشية والإبل والقمح والشّعير، وكذلك "سجن أربعين فارسا من عكّارة بدون وجه حق". أنظر خ.و.ح.ت. السلسلة التاريخيـة، مراسلات عمال الأعراض، صندوق 42 ملف 476، رسالة من ميعاد ورغمة الى الوزير مصطفى خزندار بتاريخ 8 ربيع الأول 1279هـ.

10) - الشّريف (محمد الهادي) : ردود فعل المدن على الإحتلال الفرنسي للبلاد التونسيّة سنة 1881 وحدودها ، الملتقى الأوّل لتاريخ الحركة الوطنيّة (29-30-31ماي) 1982 المركز القومي الجامعي للتّوثيق العلمي والتّقني 1983 ص 191 - 180.

11) مراسلات عمّال الأعراض : خ.و.ح.ت. ملف 300 مكرّر صندوق 215 وثيقة 76 وهي رسالة من حيدر باشا آغا المكلّف بالأعراض إلى مصطفى بن إسماعيل الوزير الأكبر بتاريخ 19 رمضان 1299/ 15 أوت 1880 - السلسلة التاريخيّة.

12) راجع لبيض (سالم) : مرجع سابق ص 66، فصل بعنوان "دور الخلفية العقائديّة في تشكيل وعي المقاومة".

13) نفس المرجع، ص ص 78-79.

14) خ.و.ح.ت. ملف 180 عدد7 سلسلة رسالة من دكلارك إلى المقيم العام بتاريخ 22 أكتوبر 1895.

15) لبيض (سالم) : مرجع سابق ص 60.

16) Bailly : مرجع سابق ص 79.

17) ليسير (فتحي) : نجع ورغمة تحت الإدارة - مرجع سابق ص 18.

18) يطلق إسم عمل ورغمة على منطقة مدنين وتطّاوين : خ.و.ح.ت. كرتون 180 ملف عدد 4 سلسلة7.

19) Le boeuf (J) :" Historique de la conquête pacifique des territoires militaires de Tunis "Revue tunisienne (X.I.V.) 1907.

20) الأنثروبولوجيا والتّاريخ دار توبقال المغرب 1988 عن مقال ليليا بن سالم.

21) Le boeuf : مرجع سابق ص 13.

22) Marty (J) : Les territoires du Sud Tunisien et leurs ressources, Arbustives Thèse de Doctorat , Alger 1944, P84.

23) ديالمي (عبد الصّمد) : القضيّة السوسيولوجيّة، إفريقيا الشرق 1984 ص 46.

24) مرتال : مرجع سابق ص ص 47 - 82.

25) إبن خلدون (عبد الرّحمان) : المقدّمة، دار ومكتبة الهلال بيروت 1983 ص 90.

26) بوطالب (محمد نجيب) : هجرة ورغمة للعمل في مدينة تونس 1881-1950، دراسة مرقونة، بيت الحكمة وحدة بحث الفئات الشعبيّة تونس 1991 ص6.

27) مارتال : مرجع سابق ص 45.

28) ليسير (فتحي) : الإستعمار الفرنسي وقبائل أقصى الجنوب التّونسي مثال الودارنة 1882-1981 ش.ك.ب. كليّة العلوم الإنسانيّة، تونس 1987 ص 8.

29) مرتال : مرجع سابق ص 248.

30) Bailly : مرجع سابق ص - ص 2-1.

31) نفس المرجع، ص 3.

32) نفس المرجع، ص 4.

33) Deimbridgeo :Notes sur les tribus de la régence : Revue Tunisenne

34) Bailly : نفس الرجع ص ص 4-5-6

35) نفس المرجع، ص 7-8

36) Kilani (Monther) : La construction de la mémoire, Edition la bord et Fides, Genève 1992. p. 173.

37) أنظر شجرة الولي "سيدي الصيّاح المغربي " وكذلك الشجرة النبويّة للسادة القوائدة - وثائق غير منشورة.

38) شجرة الصيّاح، وثيقة غير منشورة، عثرنا على هذه الوثيقـة لـدى القـائمين علـى الزاويـة العيساويّة بجرجيس.

39) أنظر الأرشيف الوطني دفتر عدد761.

40) إبن منظور : لسان العرب 92 دار إحياء التّراث بيروت 1992 ص 338 .

41) دفتر عدد 761.

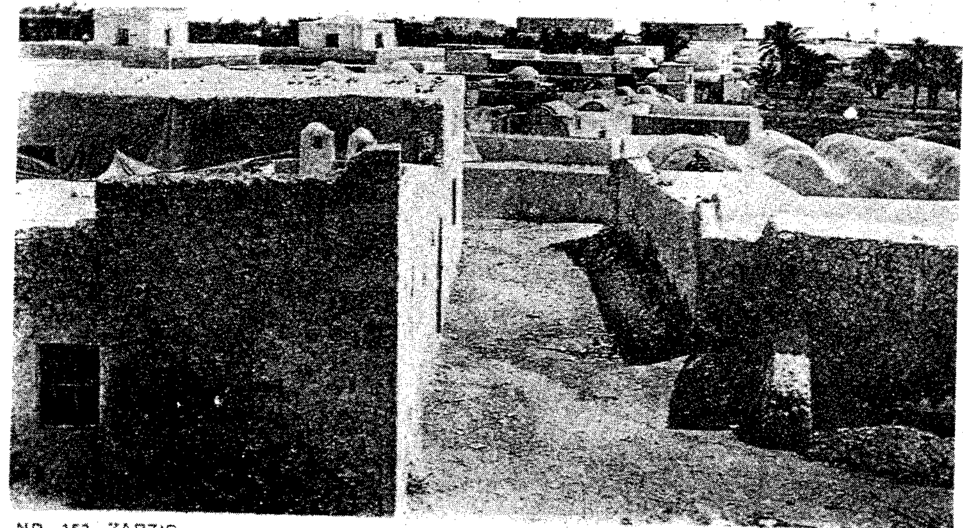
42) Deimbridgeo : مرجع سابق ص 281.

43) Volard : مرجع سابق ص 56.

44) Bailly : مرجع سابق ص10.

45) Nomenclature et répartition des tribus de Tunisic, pp. 279-298

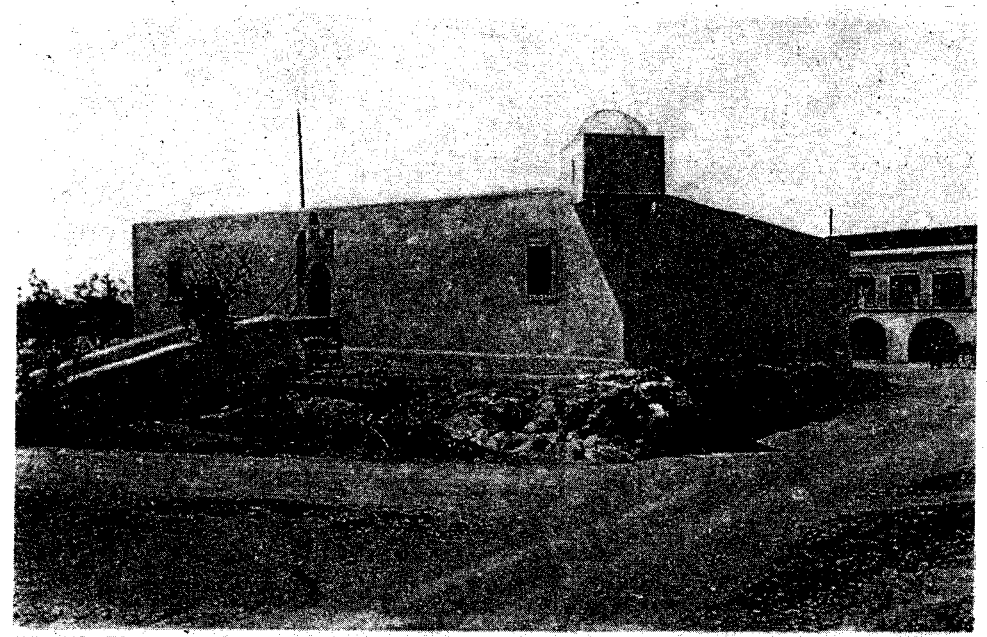
الملحق



تشكّل المدينة ونمط السّكن في بداية القرن العشرين

1139 ZARZIS
Une partie de

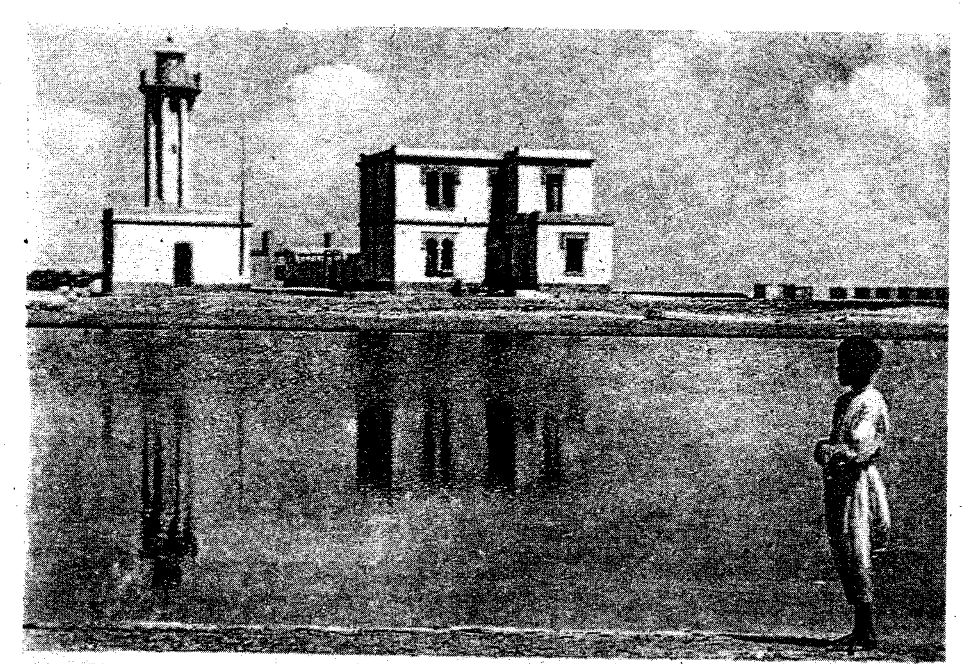
لعبة "الدّيمينو" احدى وسائل التّرفيه لدى العكّاري قديما



برج الحصار في العشرينات



غرف قصر الزاوية بجرجيس في العشرينات



ND 153 ZARZIS Le Phare et la

فنارة ميناء جرجيس القديم

154 ZARZIS Le Port - Bateaux à l'échouage

المراكب التقليدية لصيد السمك

D 163 ZARZIS Les Courbis dans l'Oa

القربي (الكوخ)، أحد نماذج السكن بجرجيس القديمة

ND 162 ZARZIS

Habitations dans l'

تطور السكن في جرجيس القديمة من الكوخ الى الغرفة

صورة لمدينة جرجيس سنة 1936 وتحتوي على :
برج الحصار وعلى جامع الحصار



برج جرجيس في الخمسينات



صورة فضائية لجرجيس سنة 1917



واحة جرجيس القديمة

ND 164 ZARZIS

Canalisation dans

الحنايا في العشرينات



مشهد للنشاط الفلاحي بجرجيس قديما



واد العقلة بجرجيس



صورة لتلميذات بالمدرسة العربية الفرنسية في الثلاثينات



عدد cb 56

متحف جرجيس



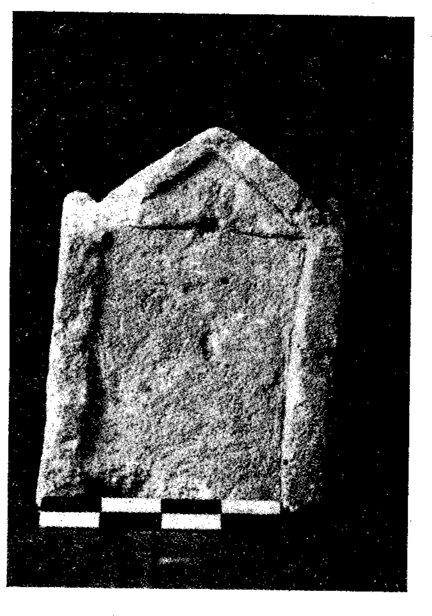
عدد cb 179

متحف جرجيس



عدد cb 183

متحف جرجيس



عدد cb 187

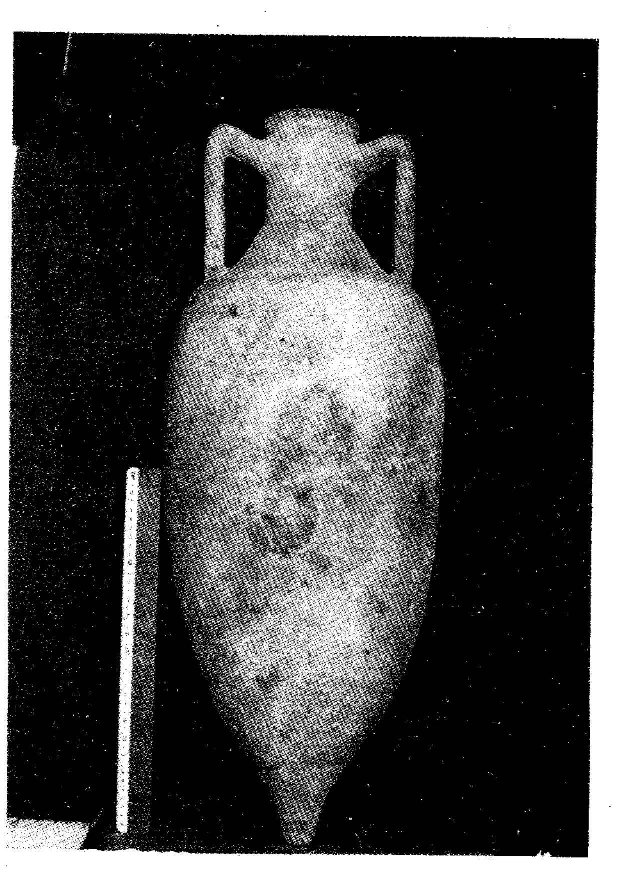
متحف جرجيس



صحن من النوع الاريتيني، مدفنة شماخ
متحف جرجيس عدد 16.2.87.



صحون فخارية، مدفنة شماخ
متحف جرجيس عدد12.8.87



جرة، مدفنة شماخ
متحف جرجيس عدد13 .4 ch.

[illegible] حفظ جميل وزارة الأعظم ونفعنا بجاه معاليه [illegible] تشريفا الى سيدي

العظيم محمد العزيز بوعتور السلام عليكم ورحمة وبركاته وبعد نعلمكم ايها السيد فحضرنا

حيث الرجوع [illegible] في البحر [illegible] النشاف في بلاد [illegible] وجدنا [illegible] الدولة ذات

جرم الايام [illegible] عن [illegible] وتستفيدوا [illegible] الكلام ثم ثانيا

بجميع [illegible] العام [illegible] المرسة [illegible] ولما رجعوا [illegible] على [illegible]

السيد [illegible] والعشرة [illegible] يا [illegible] فقلنا احنا [illegible]

رجعوا [illegible] بالقرب والشتم والكلام [illegible]

[illegible] من الناس الاثنين وانه رجعوا البحث [illegible] السيد [illegible]

[illegible] وهذا [illegible] ذلك الكلام فدمنا [illegible] السيد [illegible]

السيد [illegible] الى رئيس المرسة [illegible] التحقيق [illegible]

الحق [illegible] الزمان [illegible] الرابع [illegible] نايب المرسة [illegible]

انه [illegible] الان [illegible] دائرة

[illegible] بالتعرض [illegible] السوادس

[illegible] السيد [illegible] عن [illegible]

و[illegible] بالشارع [illegible] البحث عن [illegible]

سادات [illegible] الوزارة الكبرى [illegible] [illegible]

وانتم [illegible] كتب في رمضان 9 سنة 1301

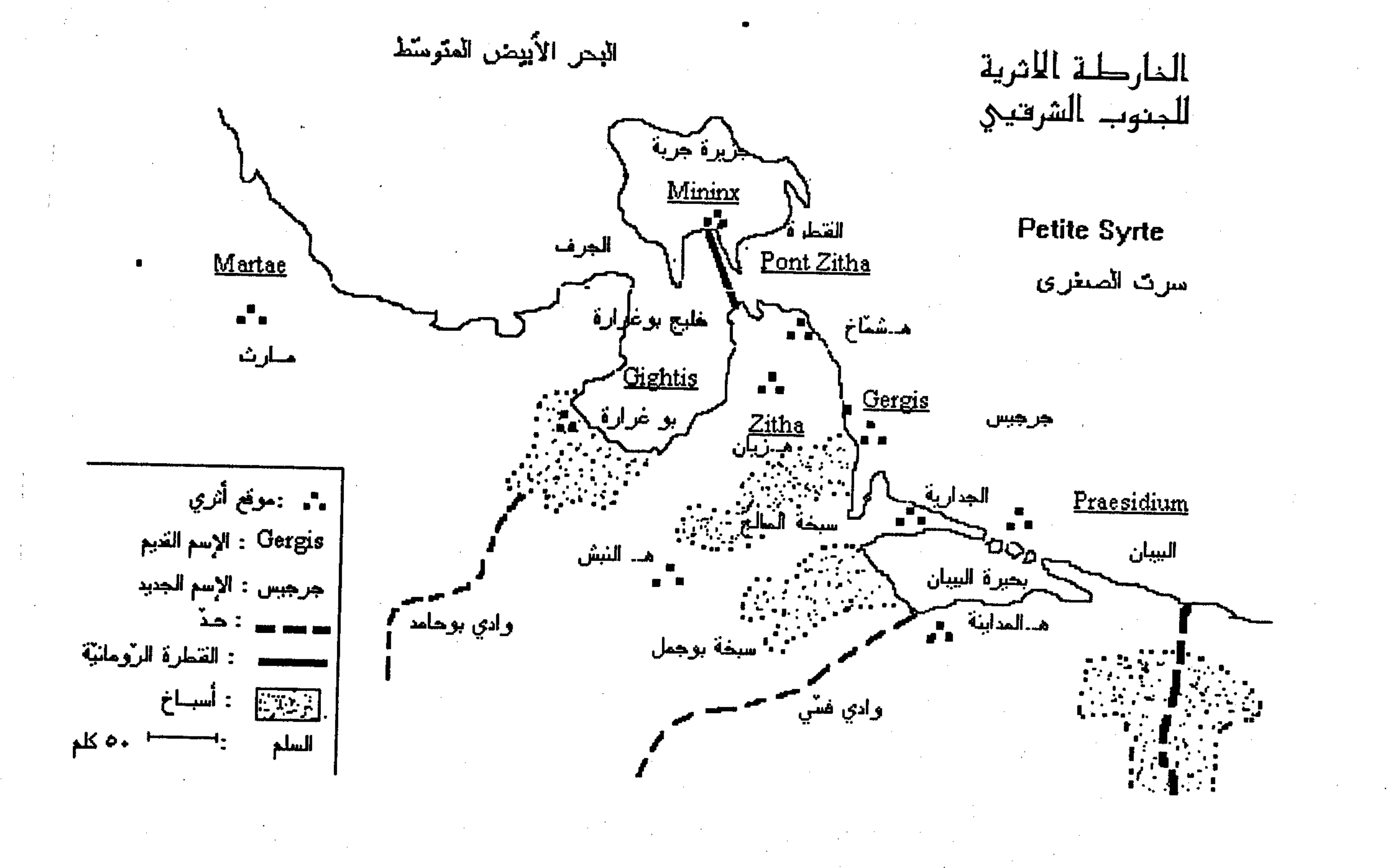
[illegible] عبد العالي [illegible] الزواوي [illegible]

[illegible] محمد [illegible] الزواوي [illegible]

[illegible]

— وثيقة عدد 4 : شكوى من أحد البحارة برايس الميناء ماتسي

المصدر : أ — و ، سلسلة E ، صندوق 397 ملف عدد 1 .



الخارطة الاثرية
للجنوب الشرقي
البحر الأبيض المتوسّط
Petite Syrte
سرت الصغرى
جزيرة جربة
Mininx
القنطرة
Pont Zitha
الجرف
Martae
مارث
خليج بوغرارة
هـ.شمّاخ
Gightis
بو غرارة
Zitha
هـ.زيان
Gergis
جرجيس
الجدارية
Praesidium
سبخة المالح
البيبان
هـ. النبش
بحيرة البيبان
هـ.المداينة
وادي بوحامد
سبخة بوجمل
وادي فسّي
:موقع أثري
Gergis : الإسم القديم
جرجيس : الإسم الجديد
: حدّ
: القنطرة الرّومانيّة
: أسباخ
السلم :
٥٠ كلم

NOTES

* Menouillard, Revue Tunisienne, 1905.

(1) La danse des cheveux s'exécute aussi à Kebili et dans le Nefzaoua. M. Saint-Paul, dans Souvenirs de Tunisie et d'Algérie (Paris, 1904), la décrit pages 95-98. Les moeurs dont M.Menouillard donne une si intéressante description existent d'autant plus vives chez les Berbères que l'on a affaire à des tribus moins islamisées. Comme habitudes comparables à celles des Accara de Zarzis, on peut consulter l'article de M.Mouliéras paru dans le Bulletin de la Société de Géographie d'Oran, 1904, pages 233-305, intitulé : Une tribu Zénète antimusulmane au Maroc.

La Rédaction.

Dans la soirée, vers trois ou quatre heures, la fiançée, revêtue de ses plus beaux habits et parée des bijoux qui lui ont été donnés, se hisse sur la djohfa, ou palanquin, portée par un chameau.

Cette djohfa est faite de tapis de diverses couleurs formant le plus joli effet par les dispositions heureuses des teintes dont le contraste fait ressortir la vigueur du ton.

Plusieurs femmes, parmi lesquelles la mère de la mariée, suivent, en chantant, la djohfa, devant laquelle les jeunes gens tirent des coups de fusil et quelquefois organisent une fantasia, si le marié est une personnalité importante. Le cortège se dirige ensuite vers la demeure du fiancé, où on remet aux parents de celui-ci la jeune épouse. C'est le soir même qu'a lieu la consécration du mariage.

Pendant les sept jours qui suivent, la jeune femme reste dans sa tente, où tout le monde vient lui faire visite, sauf les jeunes gens qui par respect s'en abstiennent.

N'est-ce pas là des coutumes particulières, que celles qui permettent, aux jeunes gens de demander eux-mêmes aux jeunes filles leur consentement au mariage, qui les autorisent à les fréquenter, à les voir, alors que partout ailleurs cette indiscrétion est cause de sanglantes disputes!

N'est-ce pas contraire à tout ce que l'on sait des moeurs arabes, que la jeune fille se montre, les jours qui précèdent son mariage, le visage découvert, les cheveux épars, ainsi que pendant sept jours après son mariage!

Cette danse des cheveux n'est-elle pas originale! D'où tire-t-elle son origine?

Ces moeurs existent-elles ailleurs?(1).

MENOUILLARD.
Zarzis, octobre 1904

Un d'entre eux entre dans le cercle, et tandis qu'un des nègres, portant un grand tambour, s'agenouille à terre, le jeune homme s'approche et d'un geste fier et noble il jette sur le tambour, qui résonne sous le coup, cinq ou dix pièces de cinq francs.

Puis, dix pas plus loin, et ainsi de suite jusqu'à ce qu'on ait fait un tour complet de cercle, la même scène recommence.

Les pièces tombent du tambour dans les burnous du nègre, auquel elles appartiennent dès ce moment.

Le lecteur s'étonnera certainement d'une pareille prodigalité, qui représente pour celui qui la fait une dépense d'au moins vingt pièces de cinq francs.

Et les nègres, combien gagnent-ils donc par soirée ?.
En réalité, les vingt ou quarante pièces de cinq francs que le jeune homme a jetées ne lui ont coûté que vingt ou quarante centimes, à raison d'un centime par pièce.

Ce sont les nègres qui vendent ces douros, et on ne fait donc que les leur rendre quand on les jette sur le tambour.

La cérémonie prend fin vers dix heures; c'est le fiancé qui l'indique en venant jeter à son tour des pièces sur le tambour.

Le lendemain, troisième jour des cérémonies, les nègres chantent comme le veille et les jeunes filles font la danse des cheveux, mais, au lieu de se faire la nuit, la fête a lieu le jour. Cette journée s'appelle le sekhab.

Le quatrième jour, les parents du fiancé reçoivent tous leurs proches parents, amis et étrangers qui ont été invités à manger le couscous. Ceux-ci ne viennent pas d'ailleurs les mains vides et chacun selon ses ressources apporte de la viande, du blé moulu, etc., qui servent à nourrir les visiteurs suivants. Toute la matinée, il y a table ouverte.

les événements du jour. Partagés en deux groupes, les seconds répètent ce que disent les premiers. Puis devant le groupe des femmes, ils chantent aussi leurs qualités et leur beauté :
"Je chante la femme aux yeux noirs, à la taille bien faite,
"A la chevelure abondante retombant sur ses épaules,
"Dont la belra est garnie de soie;
"Le nègre a voulu s'approcher de sa tente,
"Mais le chien a aboyé et le vieillard a toussé."

Pendant que les you you les remercient de leurs paroles, ils se portent rapidement vers le côte du cercle opposé à la fiancée, puis ils reviennent vers elle en tournant, pirouettant sur un pied, en se baissant jusqu'à toucher le sol, se relèvent, agitent leur bâton, tout cela avec un ensemble parfait.

Dans la nuit et à la lueur des éclats du feu, ces grands corps tout blancs s'agitant, sautant, remuant, font le plus drôle d'effet. On croirait assister à une danse de démons ou à une fête du sabbat.

Ceci terminé, ils recommencent leurs chansons.

Dans le même temps, la fiancée et les filles d'honneur, toujours à genoux, ont quitté les diverses pièces d'étoffe qui leur servent de coiffure. Leurs cheveux huilés, épars sur le dos, et leur visage découvert, exposées aux regards de tous, elles commencent ce balancement de la tête et du corps d'avant en arrière et de droite à gauche qui ramène à chaque fois leur chevelure tantôt sur la figure, tantôt sur les épaules, d'où le nom de danse des cheveux.

Comme cet exercice dure de deux à trois heures, on peut penser quelle peut être leur fatigue.

Mais les nègres, infatigables, eux, continuent leurs chansons, qu'ils interrompent pourtant de temps en temps, par intérêt; car c'est le moment que choisissent les jeunes gens pour faire parade de leur générosité devant les dames de leurs pensées.

Un bon repas d'aich à l'huile les attend, auquel sont conviées les femmes qui ont monté la tente. On appelle ce jour : le jour du bois et de la couture (de la tente).

Le jour suivant est consacré à l'exposition du trousseau offert par le fiancé, consistant en vêtements et bijoux. On le porte de la maison de celui-ci à celle de la fiancée, sur un chameau.

Une négresse se place au-dessus des effets et tient bien en évidence la chemise de la fiancée faite de bandes de soie de plusieurs couleurs et bordée d'or sur le devant, dont le prix varie de 20 à 40 francs. Cette femme chante tout en agitant cette chemise.

Une procession d'hommes et de femmes lui font cortège, tirant des coups de fusil et chantant aussi jusqu'à l'arrivée au domicile de la fiancée.

Là, on étale le trousseau, que tout le monde vient admirer.

C'est le jour du kessouâ (vêtement).

C'est la nuit de ce jour que commence véritablement la noce.

Vers huit heures, devant la tente, future demeure des jeunes mariés, les assistants forment un cercle éclairé sur un des côtés par un grand feu constamment entretenu.

La fiancée, qui arrive à ce moment, suivie d'un grand nombre de ses amies, se place avec ses demoiselles d'honneur, au nombre de quatre ou cinq, sur un des bords du cercle, face au feu. A côté d'elles se mettent toutes les femmes, sur plusieurs rangs, assises par terre. Enfin, deux ou trois nègres joueurs de tambourin se mettent un peu plus loin. Les hommes forment le reste du cercle.

Alors, entrent en lice cinq ou six nègres chanteurs, dont c'est là le seul métier; revêtus de longues houppelandes très blanches, la tête recouverte du litham, de long bâtons à la main, ils se mettent devant la fiancée et chantent en son honneur des couplets qu'ils improvisent sur elle, son mariage ou sur

Une autre, qui désire se marier avec l'homme qu'elle aime, dit à ses amies combien elle sera heureuse le jour où elle sera réunie à lui dans la tente en poils de chameaux :

"Par Dieu ! Oh mes amies, mon coeur brûle du désir de me trouver dans la tente à la bordure rouge et à la laine toute neuve."

Cette tente, c'est celle qu'on donne aux nouveaux époux le jour de leur union et qui leur sert de chambre nuptiale.

Quel plus utile cadeau faire à des gens presque nomades et qui doivent vivre la plus grande partie de l'année en campement ?

L'installation de cette tente est un des actes importants de cérémonies du mariage.

Le quatrième jour qui le précède, elle est mise en place par des femmes veuves ou divorcées (condition sine qua non) devant la maison des parents du fiancé. Les chants, les you you, les coups de fusil accompagent ce travail qui dure toute la journée, car avant de la monter il faut coudre les unes aux autres les bandes qui composent la tente.

Le même jour, les proches parents, amis, voisins du fiancé, munis de pioches et des cordes et aussi de fusils, partent de grand matin dans les champs faire du bois qu'ils apportent, sur des chameaux à la maison du futur mari.

C'est une partie de plaisir, d'autant plus que quelques femmes se sont jointes au cortège.

Ce bois doit servir à alimenter un grand feu qu'on allume devant la tente, la nuit, pour éclairer les assistants et les spectateurs.

Le soir ramène les hettaba (bûcherons) à la maison. En approchant ils tirent force coups de fusil et les femmes poussent de nombreux you you (comme d'ailleurs on l'a fait tout le long de la route) pour annoncer leur arrivée.

Le jour de la cérémonie étant fixé, quelque temps à l'avance les aparentés et amis du fiancé viennent aider les parents de celui-ci à faire les préparatifs de la noce.

Ce sont surtout les femmes dont le concours est utile. Tous les soirs, elles se réunissent pour moudre le blé qui doit servir à confectionner les montagnes de couscous que l'on offrira aux invités.

Tout en tournant leur moulin en pierres, elles jasent, piaillent, fatigant plus leur langue que leurs bras.

Les jeunes filles, pendant ce temps, chantent. Leurs couplets, très courts, où il est toujours question d'amour, commencent sur un ton aigu, pour se terminer brusquement sur un rythme lent.

Des jeunes gens, attirés là plus sûrement par le feu des regards des jeunes filles que par celui qu'on allume devant la maison pour éclairer les scènes, répondent aux jeunes filles par des coups de mousqueton. Aucune interdiction n'est faite aux hommes de venir se mêler aux femmes, toutefois la plus active surveillance est exercée sur celles-ci par les parents et les frères.

Dans la maison de la fiancée il y a même affluence de monde, et les jeunes filles ses amies chantent aussi.

Voici quelques uns de ces couplets :

"O ma chère maman ! celui que j'aime de passer, le regard triste et le visage abattu; il a grand désir de me parler, mais je ne peux trouver le moyen de lui faciliter son désir."

C'est la plainte exhalée par une jeune fille dont les parents s'opposent à son union avec celui qu'elle aime.

Une autre se moque d'un homme vilain qu'on veut lui faire épouser parce qu'il est riche, tandis qu'elle préfère un jeune homme pauvre mais beau :

"O ce vilain ! que Dieu maudisse son père et l'origine de sa fortune ! Oh! mon bien-aimé, un seul regard de toi me tue."

Mais, outre cette particularite, les scènes de la cérémonie et les conditions de promiscuité entre hommes et femmes sont si dissemblales des moeurs et des lois observées par les autres musulmans, qu'ils excuseront un récit détaillé d'une noce à Zarzis.

Ici, en effet, tout au contraire de ce qui se passe ailleurs, c'est le jeune homme qui choisit sa fiancée.

Sa présence journalière au puits où celle-ci va puiser de l'eau et ses regards passionnés indiquent à la jeune fille qu'elle est l'objet de son choix, et s'il agrée à celle-ci, elle sait lui indiquer qu'elle n'est pas insensible à son intention.

Autorisé par ce fait à lui parler, il l'accompagne un bout de chemin et lui fait sa demande en mariage. Dès lors, il s'arrangera pour lui causer un moment tous les jours, si les parents ne voient pas d'opposition à leur union.

D'autres fois, les fiancés ou les candidats fiancés se réunissent à plusieurs, vont attendre sur la route les jeunes filles qui ont été aux oliviers chercher du bois, et leur font leurs propositions de mariage.

Le verbe zell زلّ est employé pour signifier l'action par les jeunes gens d'aller au-devant des jeunes filles sur leur chemin, ou de leur faire la cour.

Quand sa demande est agréée, le jeune homme se fait présenter dans la maison du père de sa fiancée, où il est admis dès lors à faire sa cour à la jeune fille. Par de nombreux cadeaux, il cherche à s'attirer la sympathie de ses futurs beaux-parents. C'est ce qu'on appelle les préliminaires de la demande officielle : el-mequedimat المقدّمات . Quand les parents viennent faire cette demande, ils se font précéder de cadeaux consistant en viande, henné, belghas, huile etc.

Les conventions portent sur la fixation de la dot, le trousseau que fournira le fiancé etc.
Le mariage est alors annoncé publiquement.

UNE NOCE A ZARZIS *
La Danse des cheveux

Menouillard.

Chaque peuple célèbre les principaux actes de la vie, naissances, baptêmes et mariages, par des fêtes et des manifestations de joie. La mort seule amène la douleur.

Les Arabes, avides des plaisirs et des joies bruyantes qui plaisent à leur caractère enfant et guerrier, fêtent toutes ces phases de la vie, mais les plus grandes réjouissances sont réservées pour le mariage.

Le prophète n'a-t-il pas dit, dans les traditions léguées à son peuple : "Cachez le baptême, mais célébrez le mariage, parce que le "mariage caché et ignoré peut donner lieu à des suppositions fâcheuses ?".

En général, la célébration du mariage au point de vue du rite légal est partout la même ; mais les cérémonies sont bien différentes dans chaque contrée, voire même de tribu à tribu ; chacune s'est plu à les agrémenter ou à les augmenter de scènes qui ne sont quelquefois qu'un mélange de vieilles coutumes des Berbères ou d'autres peuples qui ont occupé le nord de l'Afrique

On pourrait décrire les noces des différentes tribus de la Tunisie, par exemple, qu'il n'y aurait pas à craindre de tomber dans des redites, et que le récit en serait toujours intéressant pour le lecteur.

Deux de ces tribus, celle des Ourghemma et celle de Accara, de Zarzis, se singularisent beaucoup plus dans les réjouissances qui accompagnent le mariage que toutes les autres tribus de la régence, notamment par une coutume particulière à ce pays, et qu'on ne voit pas ailleurs, je crois, "la danse des cheveux".

MER MEDITERRANEE

vers Tacape
(Gabes)

Girba
(Ht Souk)

PETITE SYRTE

Meninx
(Borj El Kantara)
(Zarat)
(Jorf)
(Ajim)
(Mareth)
Martae
G. Bou Grara
(Hr. Chammakh)
Zitha
Hr. Zian
Gigthis
Gergis
(Zarzis)
O. Ezzes
(Ras Lemsa)
Praesidium
(Borj Bibans)
Augarmi ?
Lac Bibans
O. Bou Hamed
vers Sabratha
O Fessi
Libye

Martae : Nom ancien
(Mareth) : Nom actuel
: Route M.C. 117
: Frontière
: Sebkha
: Oued

Echelle 1/850.000

14) Les Métamorphoses ou l'âne d'or, trad. P. Vallette, Paris 1924.Liv.VI,2.
15) Ibid, Liv.XI, 11.
16) Tibulle ,Elégies, éd.Ponchont, Paris 1961, Liv. I, 7.
17) M. Leglay, Sat. afr., Histoire, p.362.
18) L. Leschi, Mosaique à scènes dionysiaques de Jemila Cuicul (Algérie), dans mon. Piot, XXXV, 1935-36, p.139-172, PL.VIII et IX, voir p. 160-161.
19) Ch. Picard, art. cité, note 13.
20) F.Cumont, Les religions orientales dans le paganisme romain, Paris 1929, p.74, PL.VI.
21) L.A.Constans, Rapport sur une mission archéologique à Bou Grara Gigthis dans N.A.M.(n.s),XXI fasc.14, 1916, p. 41.
22) Reynolds (J.M.), Ward-Perkins (J.B), The Inscriptions of Roman Tripolitania N° 296-297-298.
23) A. Bruhl, ouv.cité, p.41.
24) Apulée, Apologie, LV.8,texte établi et traduit par P.Valette, Paris 1971.
25) Sur le caractère mystique d'Isis, voir F. Dunand, op.cit., T.1,passim.
26) L.A. Constans, op. cit.,p.28-33.
27) Ibid., PL.VI,I.
28) Ibid., p.31.
29) Les Métamorphoses, Liv. XI,9,16 texte traduit par P. Valette, Paris 1985.
30) Sur l'importance du port de Gigthis dans le commerce de la petite Syrte, voir J.M.Lassère, Ubique Populus:Peuplement et mouvements de population dans l'Afrique romaine de la chute de Carthage à la fin de la dynastie des Sévères (146 a. C-235 p.C.) Paris C.N.R.S.,1977,p. 371 ss.
31) L.A. constans, op.cit.,p. 14.
32) Sur l'importance de Sérapis-Isis-Dionysos en Egypte, voir Ch.Picard. Les originaux retrouvés des statues grecques du Serapeion de Memphis dans C.R.A.I., 1951,p.71-80, voir également A.Bruhl, Liber Pater., p.54-56.
33) Voir supra notes:21-26-27-28.
34) G. Ch. Picard, Les religions..., p.186-187.
35) C.M.A., Suppl. I., C.1083.
36) Ibid., C.1076 p.63,PL.XLIX,1.
37) L. Leschi, op.cit., supra note 18.
38) Ch. Picard, op.cit., supra note 32.
39) A. Bruhl, Liber Pater...p.228 ss.
40) F. Mayet Les céramiques à parois fines: Etat de la question dans Céramiques hellénistiques et romaines Annales litté. de l'Univ. de Besançon, Vol. 36, Paris 1980, p.201-214; voir p. 209.
41) Chr. Goudineau, La céramique arétine, idem p. 123-130, voir p.125-127.
42) A. Tchernia, Le vin de l'Italie romaine, E.F.R., 1986, p.151.
43) Ibid, idem, p.134-135.
44) A. Bruhl révèle que "Bien plus que Carthage, ce sont les villes des Syrtes qui paraissent avoir été le centre de diffusion du culte dionysiaque". Liber Pater...p.229.

Notes et références

*) Article publié dans la Revue "AFRICA", T.XI-XIII, 1992-93, Institut National du Patrimoine, p. 147-157.

1) Carte de Chammakh au 1/50.000, Chammakh est à 37G 32N et 9G 66E.

2) I.L.Afr., 13 (=A.Ep.1909,240)

3) "Fouilles du ltn.Escoubes à Chammakh", Rapport de Saladin dans B.A.C, 1908, p.CLVII-CLVIII.

4) Le mobilier se compose de 14 amphores, 4 oenochoés, 3 pichets, 18 plats, 3 coupelles avec chacune un timbre, 7 coupes, 2 couvercles, une ciste et une corbeille ou calathus. Ces objets sont conservés au futur musée de Zarzis.

5) A Hr Zian l'antique Zitha (Ouest de Zarzis) j'ai repéré une tombe avec escalier de descente à 7 marches et une vaste chambre funéraire.

6) A. Drine, Les Cereres en Afrique du Nord, Thèse pour le doctorat de 3ème cycle en 2 Tomes sous la direction de M. Leglay, Paris IV, Sorbonne, Juin 1986, sur la ciste voir T.II, p.411-414 et PL.

7) F. Dunand, Le culte d'Isis dans le bassin oriental de la Méditerranée, Leiden, 1973, T.I. Le culte d'Isis et les Ptolémées, sur la ciste voir p.271, note 4 et PL.'X, 2 PL. XI, 1.

8) Sur une oenoché d'El Aouja (région de Kairouan), figure une bacchante qui tient dans sa main droite une ciste d'où sort un serpent; A. Merlin, dans B.A.C., 1918, p.CLXXXI ss. et fig.

9) M. Leglay, Saturne africain, Mon.I, Paris 1961, voir PL.X, 4; PL.XIII, 7.

10) Cet objet est appelé également canistrum et ceux ou celles qui le portaient les canistrarii ou les canistrariae; G.CH.Picard, Les religions de l'Afrique antique, Paris 1954, p.152.

11) Sur l'attribution des canistrariae à Cérès, voir la stèle de Thuburbo-Maius, Inv. du Musée du Bardo, N.3513; le cippe de Gales (Hr Karrouba), C.M.A., Suppl.I,C.1076,p.63, PL.XLIX, 1; la stèle de Thacia, C.M.A. 1er fasc. C103, p.59, PL.XVI, voir également les inscriptions de : Madaure. I.L.Alg. I.,2033; de Cherchel. C.I.L.VIII, 9337, et 9321.

12) M. Leglay, Saturne africain, Histoire, p.374.

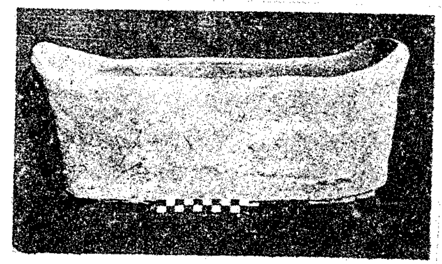
13) En Alexandrie il y avait une procession dite du calathus consacré à Cérès. Cette cérémonie est représentée sur une monnaie de Trajan, voir D.A.G.R., s/v Calathus, fig. 1002 et Ch. Picard, La patère d'Aquileia et l'éleusinisme à Rome aux débuts de l'époque impériale dans Ant. Classiques, XX, 1951, p.359 fig.1. Sur l'importance du Calathus dans le culte de Liber Pater, voir la cérémonie dionysiaque d'initiation representée le sarcophage de la villa Medicis, A. Bruhl, Liber Pater, origine et on du culte dionysiaque à Rome et dans le monde romain, Paris PL.XIX.



1 - Ciste



2 - Support de la ciste



4 - *Calathus* ou corbeille



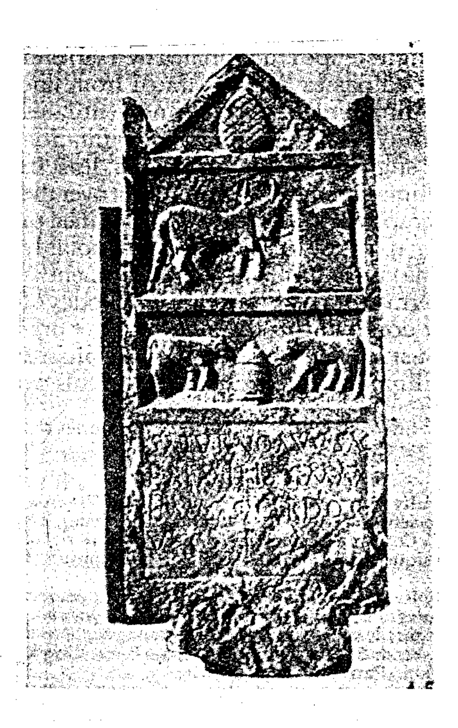
3 - Couvercle



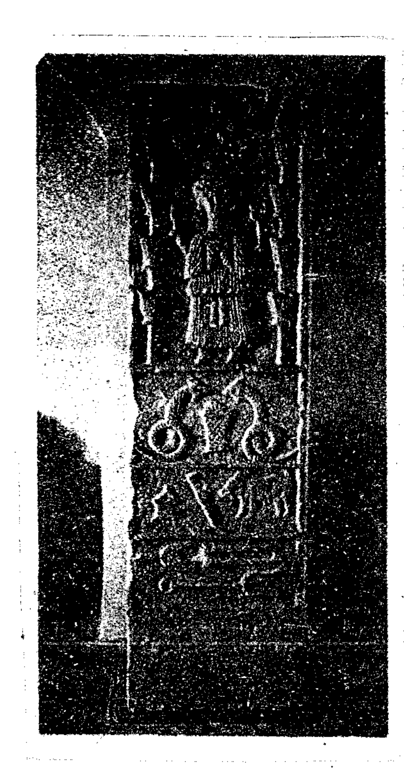
1 - Stèle consacrées aux Cereres, Sidi Ali Médiouni Mactar, au 3è registre une laie à droite, devant sont sculptés un coutelas et une ciste. (Musée du Bardo).



1 - *Calathus* renfermant une ciste (en haut à gauche) et des offrandes sur une stèle consacrée à Saturne (Hr Srira Tunisie).



2 - Au 3è registre de cette stèle deux béliers affrontés et séparés par une ci[illegible] sur une stèle consacrée à Saturne (Sbeit[illegible] [illegible]sie).



2 - Autel consacré à Isis, Musée du Capitole à Rome.
Face principale : Une ciste entourée d'un serpent.

Ces deux documents sont très précieux. Leur signification religieuse est importante. ils nous ont permis ainsi d'avoir un nouveau témoignage sur la diffusion des croyances mystiques dionysiaques ou isiaques dans la Petite Syrte (44) et aussi de révéler le rôle d'Alexandrie dans la diffusion de ces croyances.

En Afrique, les documents nous permettent de dire que cette fusion a été due ou plutôt facilitée beaucoup plus par le caractère funéraire qu'agricole de ces divinités (39).

L'importance de la ciste et du calathus dans les cérémonies des cultes mystiques et la place qu'occupent les cultes de Liber Pater et de Sérapis Isis dans la Petite Syrte nous autorisent à dire que les deux exemplaires de Chammakh découverts dans un contexte funétaire ont été utilisés par des néophytes voués à un culte à mystères se rapportant soit à Liber Pater soit à Sérapis-Isis.

Le mobilier découvert avec la ciste et le calathus comprend trois vases en céramique à parois fines; trois plats timbrés de type arétin ainsi que 13 amphores.

Les trois vases en céramique à parois fines ont les mêmes formes : Panses arrondie, dont la partie supérieure oblique est inclinée légèrement vers l'intérieur. Les lèvres sont soulignées de deux fines rainures. La pâte est beige rosée granuleuse. Le décor est sablé en quelques endroits.

Ces vases sont de type gaulois. cette production caractérisée par la fréquence du décor sablé est apparue au premier quart du premier s.apr.J.C. (40). Les trois plats arétins ont chacun un timbre. Le fond est plat décoré d'un sillon. Le pied est annulaire, pâte fine dure marron, vernis de couleur tendant vers le marron.

Quant aux amphores, elles sont du type DR. 2/4 : Col long, anses bifides, taille assez grande 1m 10 de L.

En Afrique ce type d'amphores est selon A.Tchernia bien mieux attesté entre Alexandrie et Carthage que plus à l'Ouest (42). Son apparition se situe au milieu du 1er s.av.J.C. Quant à sa disparition elle se situe au IIè s.apr.J.C.(43).

Comme nous le constatons, l'ensemble de ce mobilier découvert à Chammakh est chronologiquement homogène. Il nous situe entre la fin du 1er s.av.J.C. et le début du 1er s.apr.J.C. ; c'est la date que nous donnons à la ciste et au calathus découverts dans ce site.

une tête de Sérapis (27), un fragment de terre cuite ayant appartenu à une lampe en forme de barque, on y remarque le buste de Sérapis et la tête d'Isis accostée d'uraei et de croissants surmontés d'un disque(28). Selon Apulée ce type de lampe ayant la forme de navicelle est un attribut distinctif de ces divinités (29). Les deux accessoires de Chammakh viennent s'ajouter ainsi aux nombreux documents que j'ai cités concernant les cultes à mystères dans la région syrtique. L'existence des cercles mystiques dans cette région ne fait pas de doute, ce qui mérite d'être étudié maintenant c'est de savoir à quel culte furent consacrés les deux accessoires de Chammakh.

L'important mobilier découvert dans ce site en particulier les amphores et les bouts d'amphores qui jonchent le sol de nombreux sites autour de Chammakh montre que la presqu'île de Zarzis connut une activité commerciale intense. Pour leurs échanges commerciales les habitants de cette région utilisaient jadis le port de Gigthi (30). La position géographique de ce site l'invitait au commerce surtout avec le port d'Alexandrie voire Ostie (31). Par suite des relations commerciales entre le grand port égyptien et la côte de la Petite Syrte jusqu'à Thaenae et par l'intermédiaire de la Cyrénaique possession des Ptolémées, on ne s'étonne pas que les divinités alexandrines les plus importantes à savoir Sérapis Isis et Liber Pater(32) aient été longtemps vénérées par les Gigthenses (33). Il est par conséquent fort possible que les relations commerciales entre le port alexandrin et celui de Gigthi aient facilité l'introduction des ces divinités dans ce site et dans ses environs.

L'étude de nombreux documents archéologiques africains se rapportant aux cultes mystiques des Cérès et de Liber Pater montre le rôle joué par Alexandrie dans la diffusion de ce culte. Il suffit de citer ici la stèle de Sidi Ali Mediouni (34) et le cippe d'Abthugni consacrés aux Cereres (35), le cippe de Gales relatif aux Cereres et à Liber Pater (36) et la mosaique à scènes dionysiaques de Jemila Cuicul où on voit une scène d'initiation qui groupe Dionysos et Déméter (37). Sur ces documents, nous rencontrons les mêmes thèmes alexandrins à savoir la fusion Déméter-Dionysos; Isis-Sérapis-Dionysos (38).

identique à celle de Chammakh, son couvercle est entouré par un grand serpent. En haut est gravée une inscription consacrée à Isis (20) = infra PL.II,2. Vu sa valeur cultuelle, la ciste de Chammakh a servi sans doute à enfermer les objets sacrés que l'on révélait aux néophytes pendant l'initiation. Il en est de même pour le calathus qui a servi à receler les objets sacrés et les offrandes nécessaires aux sacrifices, ce qui implique que les habitants de ce site ont été initiés aux mystères antiques.

Nous basant sur les documents concernants les cultes à mystères dans les sites les mieux explorés de la Petite Syrte ; à savoir Gigthi, Leptis Magna, et Sabratha, nous allons essayer de voir maintenant à quel culte furent consacrés les deux accessoires de Chammakh.

Les documents archéologiques découverts dans cette région révèlent l'importance de deux divinités ayant un caractère mystique à savoir Liber Pater et Isis Sérapis.

A Gigthi, Liber Pater est considéré comme l'un des dei patrii de la cité. Il possède un sanctuaire dédié par un flamine perpétuel M. Iulius Mandus. Ce sanctuaire s'ouvre par trois entrées sur la rue du forum (21). La cella est entourée d'un couloir ayant servi probablement à la célébration des rites mystiques.

A Leptis Magna, Liber Pater était honoré en tant que génie de la colonie (22). A Sabratha, les fouilles ont dégagé sur le forum un temple de Liber Pater, une inscription nous fait connaître l'existence d'un Flamen Liberi Patris (23). Dans cette cité, nous savons que lorsque Apulée prononça son discours vers le milieu du IIème siècle apr.J.C. pour se défendre il fit appel aux témoignages des mystes du Dieu Liber présents dans son auditoire (24), ce qui implique que des habitants de ce site avaient reçu l'initiation dionysiaque. Les autres divinités à mystères vénérées à Gigthi se rapportent au culte d'Isis Sérapis (25). Ces deux divinités possèdent un temple qui domine la place Ouest du forum ce qui explique le caractère officiel de leur culte (26). Dans ce site, les archéologues ont découvert également

nom de canistrum qui veut dire aussi corbeille ou calathus. Ces porteuses de corbeilles font partie du personnel des cultes de nombreuses divinités ayant un caractère agricole en particulier Cérès (1) et Saturne (12).

Le calathus est également un accessoire important dans les cultes à mystères tels Cérès et Liber Pater (13).

Ce travail consiste donc à exploiter les renseignements que peut nous fournir l'étude de ces deux objets en tant qu'accessoires importants dans les cultes mystiques. Cette étude nous permettra également d'avoir de nouveaux témoignages sur ces cultes dans la région de la Petite Syrte.

La valeur cultuelle de ces accessoires dans les cultes à mystères est démontrée par les sources littéraires et par les documents archéologiques. Dans les Métamorphoses d'Apulée, Psyché s'adressant à Cérès parle des "secrets inviolables des cistes (14) et dans les cérémonies consacrées à Isis, le même auteur évoque " La corbeille qui renfermait ce qu'on dérobe aux yeux des profanes et qui cachait dans ses flancs les mystères de la sublime religion" (15). En parlant d'Osiris, Tibulle évoque "La légère corbeille qui prend part aux mystérieuses cérémonies" (16). De même la présence de la ciste sur des documents figurés suffit à montrer le caractère mystique d'une divinité quelconque; c'est la conclusion de M.Leglay dans son étude sur Saturne africain. (17).

Sur une mosaique à scènes dionysiaques de Cuicul (Jemila) en Algérie est représentée une femme assise qui tient soigneusement une ciste sur ses genoux. L'auteur voit en elle Déméter, il souligne l'importance de cet accessoire dans les mystères dionysiaques (18).
La scène révèle en particulier l'association de Dionysos et de Déméter en tant que divinités à mystères.

Ch. Picard s'est fondé également sur la représentation d'une ciste sur la patère d'Aquileia à Rome pour montrer la tentative de l'empereur Claude d'introduire l'éleusinisme (mystère de Déméter) à Rome (19). Au Musée du capitole à Rome est exposé un autel, sur sa face principale, nous voyons une ciste

-- La ciste : PL.I,1.

* Ciste avec couvercle.
* Ht. : 35,5 cm; D. Embouchure : 19; D. de la base : 21; Ht. du couvercle : 18,90 cm; ép. : 1,80 cm.
* Terre cuite, pate brune, surface blanchâtre en quelques endroits.
* Etat de conservation : Bon; légère cassure à l'extrémité du bouton de préhension et sur le bord.
* Musée de Zarzis, inv. C. 1.

Notre objet se compose de deux éléments :

-- Le support (PL.I,2) est de forme cylindrique, légèrement élargi en bas, formant ainsi une large base circulaire qui repose directement sur le sol. La base et l'embouchure sont ornées sur le pourtour extérieur de traits concentriques en relief formant des moulures.

-- Le couvercle (PL.I, 3) a une forme semi-sphérique en dôme surelevé, surmonté d'un gros bouton de préhension. Il est orné également de traits concentriques.

Considérée comme un objet important sinon primordial dans les cultes mystiques, la ciste sert à conserver et surtout à cacher aux yeux des profanes les objets mystérieux et sacrés dont la vue et l'utilisation sont réservées aux seuls initiés.

La ciste de Chammakh est très proche des cistes figurées sur les stèles et cippes consacrés aux cultes des divinités mystiques: Cérès (6) = Infra PL.II, 1; Isis (7) = PL.II, 2; Liber Pater (8) et Saturne (9) = PL.III, 1, 2.

-- Le Calathus ou corbeille (10). (PL.III, 1).

* Ht. : 13,5 cm; L. : 42,7; l. : 14,5; P.F. : 11; ép. : 2.
* Terre cuite, pâte rouge, surface extérieure blanchâtre.
* Etat de conservation : Bon.
* Musée de Zarzis. inv.C2.

Le Calathus de Chammakh a la forme d'une cuvette ou bassinet, ayant une large ouverture, les deux extrémités de la bordure sont légèrement surelevées. Cette corbeille servait à recéler les objets sacrés et les offrandes nécessaires aux sacrifices. On la voit sur de nombreux documents africains portée généralement par des canistrarines, d'où le

NOTE SUR LA CISTE ET LE CALATHUS DE CHAMMAKH (REGION DE ZARZIS)*

Ali DRINE
Chercheur : Institut National Du Patrimoine.

Dans le local qui abritera le musée archéologique de Zarzis, sont conservés une ciste et un calathus découverts fortuitement avec un important mobilier funéraire dans le village de Chammakh situé à 13 Km au Nord de Zarzis sur la route qui va à Jerba (1).

Chammakh est à environ 34 Km à l'est de Gigthi et à 9 km au Nord est de Hr Zian l'antique Zitha . Le village actuel est installé sur les ruines du site antique.

En 1908, les travaux exécutés par suite de la construction de la route actuelle (Le M.C 117) qui relie Zarzis à la chaussée romaine d'El Kantara ont amené la découverte d'un certain nombre de documents archéologiques dont une dédicace à la triade capitoline(2) ainsi que des "fragments de poterie qui représentent des inscriptions puniques" (3).

La découverte la plus récente concerne l'important mobilier funéraire conservé au musée de Zarzis.

Les circonstances de cette découverte ne nous permettent pas malheureusement de faire la description du lieu où a été déposé ce mobilier composé d'amphores, de plats, d'oenochoés, de pichets, d'une corbeille ou calathus (PL.I, 4) et d'une ciste (PL.I,1,2,3)(4). Car après avoir dégagé ces objets, le propriétaire du terrain a immédiatement utilisé le lieu de la découverte en fosse septique, et d'après sa description il s'agit sans doute d'une tombe avec puits de descente et une vaste chambre funéraire creusée (5)

NOTES

(1) Gergis:Toponyme antique conservé par la tradition locale. A l'époque coloniale la transcription françaice en a donné une déformation; Zarzis

(2) Le Borj occupait la place actuelle de la délégation. Il a été détruit vers les années 60, victime d'une initiative malheureuse.

Comme toutes les villes du littoral, Gergis n'a pas échappé comme sa voisine l'île de Djerba à l'occupation espagnole vers 1540. Avec le rétablissement de la domination Turque (1573) l'histoire de la population actuelle de Gergis commence.

D'après la légende, le saint patron de la tribu des "Accara" (population actuelle de Zarzis) Sidi Khélifa Saîeh serait originaire de la région saharienne occidentale ; il serait venu vers 1580 de la Saguiet El Hamra et s'est installé avec ses compagnons sur le territoire de Ben Gardane où se trouve actuellement son mausolée. A cette époque la plaine de Gergis était occupée par la grande tribu des Nouaîls déscendants des Béni-Souleim. Resserrés entre plusieurs tribus, les Accaras avaient fort à souffrir des incursions des tripolitains. il a fallu plus de deux siècles de lutte pour refouler les Nouails de la presqu'île.

Le souverain Ali Bey a fait construire vers 1760 un Borj (2) (forteresse) pour protéger les Accaras contre un retour probable des Nouails. Durant un siècle et malgré leur prise avec les tribus nomades qui les entouraient, ils se sont donnés à la culture du sol. A la veille de l'occupation française la presqu'île possédait déja son oasis, ses jardins et son oliverie.

L'occupation française de Gergis comme de l'ensemble du sud Tunisien à la fin du XIXeme siècle n'a pas été facile et la population a joué un rôle très important pour résister à l'envahisseur. Placée sous un régime militaire, plus de 20000 hectares des terres appartenant aux différentes tribus des "Accaras" ont été donnés à une douzaine de colons français. Malgré le régime militaire qu'elle subissait avec l'ensemble du territoire du sud, la population a joué un rôle important dans le mouvement de libération nationale .

Zarzis est devenue actuellement l'un des principaux ports de pêche (éponges et poissons). Zarzis qui ne cesse de s'étendre est appelée à jouer un rôle économique croissant avec l'exploitation du gisement du pétrole à Ezzaouia et avec l'aménagement du port commercial.

prospérité. Depuis El Kantara situé a sa pointe Nord, jusqu'à Ras Ajdir, à la frontière tripolitaine les ruines de l'époque romaine sont nombreuses, elles évoquent le souvenir d'une région particulièrement riche et fertile.

A dix kilomètres à l'Ouest de Gergis se trouvent les ruines d'une cité antique appelée Ziane, Signalée par les routiers antiques. Zita Municipium est l'une des principales cités de la région. Elle représentait aussi le centre d'autres agglomérations dans la presqu'île. Elle était reliée à la fois à Gighti (Bou Graraâ au Nord Ouest et à Meninx (l'île de Djerba) au Nord Est), par la chaussée. Des fouilles pratiquées au cours du 19ème siècle sur le site de Ziane ont dégagé de grands édifices tels que le Forum et des Temples, ainsi que de nombreuses statues, des trésors de monnaie et des inscriptions. A cette époque une partie de la presqu'île était couverte d'une forêt d'oliviers, comme l'atteste l'ancienne légende locale qui rappelle l'existence d'une canalisation allant de Ziane à la mer, sur une distance de 15 km environ, pour charger l'huile sur les navires.

Quant à la zone du littoral jusqu'à la frontière tripolitaine, elle était couverte d'établissements agricoles et de citernes datant de l'époque romaine.

A l'époque historique la presqu'île a subi des bouleversements importants à la fois culturels et ethniques.

Au VIIeme siècle, à la fin de la période byzantine, la conquête arabe ouvre la voie à l'islamisation de la population .

Au XIeme siècle, comme l'ensemble du pays, notre région a subi la grande invasion arabe d'Egypte, celle des Beni-Hilal et surtout des Beni-Souleim dont les Debbab constituent l'élément fondamental refoulant la population berbère dans la montagne et dans l'île de Djerba. Les nouveaux venus constituèrent désormais un des éléments importants de la population. Pasteurs nomades, de nombreuses tribus se rattachent aux envahisseurs des Béni souleim.

ZARZIS (1)

Ali MTIMET
Conservateur au Musée National
du Bardo

Située dans une région complètement aride et désolée, Zarzis est parvenue grâce à l'influence de la mer et au labeur de sa population à contrebalancer celle du sahara.

La presqu'île de Zarzis est composée géographiquement à la fois d'une longue plaine littorale qui s'étend de Ras Marmour au Nord Ouest jusqu'à la vallée d'Oued Fessi au Sud Est, et d'un plateau à croute calcaire qui est occupé essentiellement par la forêt d'oliviers et quelques vignes entourant les nombreuses agglomérations.

La plaine est couverte par deux immenses sebkhas qui, avec le Bahiret El Biban constituent une sorte de golfe interieur. Les Sebkhas, vastes étendues salées d'où la mer s'est retirée, sont habituellement à sec, l'une d'entre elles et la plus importante : Sebkha El Melàh a connu une occupation humaine dès le quatrième millénaire. Des restes de coquilles d'escargots, des outils fabriqués en silex, des fragments d'oeufs d'autruche attestent l'installation de nos hommes préhistoriques. Ces hommes vivaient des produits de la mer tirés de la grande lagune et qui devrait être assez comparable au Bahiret El Biban actuel. Si on ajoute à la récolte des escargots les oeufs d'autruche nos hommes néolithiques de la presqu'île de Zarzis ont une assez bonne ressource alimentaire.

L'abondance des escargots tend à montrer que l'environnement végétal était relativement riche, ce qui indique une nuance plus humide du climat qu'aujourd'hui.

Gergis serait semble-t-il une fondation phénicienne à l'époque numide et les multiples vestiges affirment l'antique

Tunis : Septembre 1995
Conçu et Réalisé par :
Centre des Etudes, du développement et de réalisation technique - CEDERT

PHOTO DE LA COUVERTURE :
Borj de Zarzis construit par Ali Bay (1759 - 1782), detruit vers les années 60

La Presqu'île de Zarzis à travers l'histoire

Textes écrits par un groupe de chercheurs

Edition : Association pour la sauvegarde du patrimoine de la Presqu'île de Zarzis

La Presqu'île de Zarzis à travers l'histoire



Textes écrits par un groupe de chercheurs

Edition : Association pour la sauvegarde du patrimoine de la Presqu'île de Zarzis